
كتابي
١٣
باربارا كارتلاند
المفتون
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمي مراد



المفتون

بربارا كارتلند

الفصل الأول

١٨٧٠

انفتح باب مكتبة القصر، وعلى الفور استلقت الليدى إلفا آلرتون على أرضية الشرفة .

والمكتبة فى قصر الدوق نورثالرتون من أبرز معالمه ، فكان كل زائر ينبهر بأبعادها المهيبة وشرفتها البرنزية المتداخلة التى تدور حول جدارين ، ويرتقى المرء إليها بسلم برونزى حلزونى .

وكان الجزء السفلى من سياج الشرفة ذا نقوش متداخلة من الأزهار وأوراق الشجر ، بحيث إن الليدى إلفا متى رقدت فيها صار من المستحيل أن يراها أحد فى الحجرة التى تحتها .

وفى صمت دفعت كتابها أمامها ومضت فى القراءة ، على أمل أن من كان تحتها سوف ينصرف سريعاً .

واعتقدت أنها أمها ، وعلمت أنها حتى لو رأتها فستبعث بها فوراً إلى الحديقة لأداء مهمة ما ، أو عمل أى شىء بين الأزاهير .

والواقع أن دوقة نور ثالرتون كانت مفتونة إلى حد الهوس بحديقتها ، ولم تستطع أن تفهم لماذا يحس أطفالها السأم ويضيقون بقطع الرءوس الميتة ، أو زراعة مقتنيات جديدة مجلوبة من أنحاء القطر المتباينة ، ويضيقون أشد من هذا كله باقتلاع الحشائش الضارة من أحواض الزهور .

وكانت منذ زمن طويل مقتنعة بأن ابنتها الثانية « إلفا » تقضى وقتاً أطول مما ينبغى فى القراءة التى تجعل رأسها يهيم بين السحب وتعيش فى عالم من الأحلام خاص بها .

وبخفة شديدة قلبت إلفا صفحة من الكتاب ، مركزة فكرها فيما تطالع لأنها وجدته ذا أهمية بالغة لها ، وأجفلت عندما سمعت صوت والدها يقول لأمها بحدة :

– أنت هنا إذن يا إليزابث ، وأنا الذى ظللت أبحث عنك طويلا فى كل مكان ، فقد كنت أتوقع أن تكونى فى الحديقة .

فأجابته الدوقة :

– لقد كنت أكشف فى المعجم عن الاسم اللاتينى للأزاليا الجديدة التى وردت أخيراً . لابد أن تأتى لتراها يا آرثر ! إنها نوع نادر جداً وأنا سعيدة جداً لوصولها بحالة جيدة .

فقال الدوق :

– عندى ما أقوله لك يا إليزابث، وهو أهم بكثير وأشد إثارة من الأزاليا أو سائر نباتاتك !

فسألته الدوقة متوجسة بعض الشىء :

– ماذا حدث ؟

فقد كانت تعرف أن زوجها المتبلد الحس نادراً ما يستثيره شىء ، ومن غير المألوف بالقطع أن يتبدى ذلك فى صوته ، كما هو حادث الآن .

وقال الدوق :

— لقد سويت مسألة « ماجنوس كروفت » بصفة نهائية !

فعادت الدوقة تسأله :

— ماجنوس كروفت ؟

— لا تكونى بهذا القدر من الغباء يا إليزابث ! فأنت تعرفين كما أعرف أنى أشير إلى العشرة آلاف فدان من الأرض والغابات التى كانت مثار نزاع بيننا وبين لنشستر على مدى العشرين سنة الأخيرة .

فقالت الدوقة :

— أوه .. تلك الأرض !

— نعم . تلك الأرض ! وأعتقد أنه ما من أحد سواى كان يمكن أن يخطر بباله هذا الاتفاق الودى الممتاز ...

وكانت « إلفا » تصغى الآن لهذا الحوار ، لأنها أدرى من أمها بمدى الخصومة التى تولدت عن الخلاف على ملكية ماجنوس كروفت بين أسرتى الدوقين :

فهذه الخصومة التى تسلى بها أهل الكونتية تمخضت عن عداوة مريرة حالت بين الدوقين وبين استمتاع كل منهما بصحبة الآخر .

ولم يقتصر الأمر فى هذا النزاع بين أكبر أسرتين من ملاك الأراضى فى الجيرة كلها على أن يكون مادة للغط الذى لا نهاية له ، بل نجمت عنه إشاعات نشرتها الصحف أيضاً . وكان ذلك على الخصوص مدعاة غضب الدوق نورثالرتون ، الذى يكن ازدراء

شديداً لصحافة البالوعات — كما يسميها — وكان يعتقد أن المبرر الوحيد لظهور اسم أحد النبلاء فى الصحف إما أن تكون مناسبة ميلاده أو خبر وفاته .

وبسبب هذه العداوة السائدة فى المنطقة بين الدوقين ، عانت إلفا وأختها الكبرى كارولين من عدم دعوتهما إلى أى حفلة من الحفلات التى كانت تقام فى سستر هاوس ، وهو قصر الدوق لنشستر .

ولم يقلقهما ذلك عندما كانتا طفلتين ، لأن جيراناً كثيرين كانوا يتهافتون على دعوتهما وضيافتهما .

أما الآن وقد كبرت كارولين وأوشكت إلفا أن تقدم للمجتمع هذا العام ، فقد أحنقهما أن تعلما أن الدوق الجديد ، الذى ورث اللقب والضياع منذ سنتين ، راح يقيم الحفلات الكبيرة من كل نوع فى قصره ، وهما مستبعدتان منها .

ولما شكتا من ذلك إلى أمهما ، قالت الدوقة :

— ما كنتما لتجدا فيها متعة على كل حال ، فأصدقاء الدوق أكبر منكما سناً وأكثر حنكة ، ولذا كنتما ستشعران بأنه لا مكان لكما بينهم .

وكان حديث الأم المكبوح يجعل الفتاتين تشعران بأن أمهما كانت لا تقر نوعية سلوك أصدقاء ذلك الدوق .

ومع هذا لم تستطع إلفا أن تمنع نفسها من التفكير بأن هؤلاء

الأصدقاء للدوق أمتع وأظرف من أولئك السادة الريفيين المتقدمين فى السن من هواة الصـيد الذين يدعـون دائماً إلى قصر أبيهما ألرتون تاورز .

ومع أن كارولين كفت الآن عن الاهتمام بذلك الدوق، إلا أن إلفا كانت كثيراً ما تراه فى بعض الأحيان عن بعد ، عنـدما كان يخرج للصيد ، وكانت تعتقد أنه يبدو بمظهره كما ينبغى أن يكـون الدوق :

وقالت الدوقة لزوجها :

– ماذا فعلت بهذه الأرض يا آرثر ؟ لقد سئمت السماع عنها وكنت أعتقد أن خير ما تصنعه بها أن تقتسمها مع دوق لنشستر بالتساوى .

فهدر زوجها قائلا :

– إنك لا تنصتين مطلقاً لما أقوله لك يا إليزابث ! فقد قلت لك مراراً وتكراراً : إنه عندما اقترح الدوق الراحل ذلك على والدى ، رفض هذه الفكرة من أساسها ، وقال : إن الأرض أرضه وإنه لن يتنازل عنها حتى ولو أفلس حتى آخر بنس !

وتنهدت الدوقة وقالت :

– لقد نسيت ذلك يا آرثر .

– ولكنك لابد تذكرين الجدل الذى ثار ، فقد كان لنشستر يلمح دائماً إلى أن أبى كسب هذه الأرض منه فى القمار وهو سكران

لا يعى ما هو صانع . وكل ما أستطيع قوله فى هذا الشأن إنه إذا كان الرجـل قد قامر وهو فى تلك الحـالة ، فهو يستحق بلا شـك كل ما تجره عليه !

وتنهدت الدوقة مرة أخرى .

فقد سمعت هذا الكلام كله عشرات المرات من قبل ، بل إنها لا تذكر وقتاً منذ زواجها لم يدر فيه هذا الحديث عن هذه الأرض التى بين الضيعتين .

وكانت المشكلة كلها أن هذه العشرة آلاف فدان المسماة ماجنوس كروفت كانت من أحسن أراضى الصيـد فى ضيعة لنشستر ، وفى غاباتها من الطيور البرية المستحبة للصيد أكثر مما فى أراضى آلرتون .

وأدركت الآن أن الدوق الحالى شرع منذ ورث الضيعة فى إقناع زوجها بأن يتيح له استرداد هذه الأرض التى كانت من أمـلاك آل لنشستر منذ قرون ، ولو بالشراء .

ولم يكن الدوق نورثالرتون يفتقر إلى المـال ، وكانت ماجنوس كروفت على الحافة القصوى لضيعته ، ولذا كانت زراعتها عسيرة ، إلا أنه لم يكن مستعداً إطلاقاً للتخلى عما هو حق له .

وكان الدوق الجديد معروفاً بعناده وتصميمه .

وواصل الدوق كلامه لزوجته :

– ولم أقل لك من قبل ، لأنك لا تنصتين أبداً لما أقول ، إن لنشستر فاتحنى فى الأمر فى كل مرة جمعنا فيها مكان ما ، فى نادى

هوايت وفى كل اجتماع بالكونتية ، بل بلغ به الأمر أنه فاتحنى فيه
فى ميدان الصيد ، وهو ليس المكان المناسب للحديث فى العمل .

فقالت الدوقة بدماثة :

— بالطبع لا .

— واليوم ، لما فاتحنى لنشستر مرة أخرى بعد أن تناقشنا فى
جرأة ذلك الشخص الطارئ على الجيرة الذى يريد اقتناء سرب آخر
من كلاب الصيد ، خطرت لى فكرة ..

وسكت الدوق ليلتقط أنفاسه ، فسألته الدوقة :

— وما هى يا آرثر ؟

وتطلعت إلى الشمس وهى تتكلم وتمنت العودة سريعاً إلى الحديقة.
فاليوم مناسب جداً لغرس الزهور ونقلها من الأصص التى ربيت
فى الصوبات . وقال الدوق :

— وعندئذ قلت للنشستر : « أظن هذه المناقشات طالت أكثر
مما يجب ، وأنى أقترح أن نتقاسم الأرض بطريقة مختلفة » .
فسألنى : « ما الذى تعنيه بهذا ؟ » ، فقلت له : « إن أنت تزوجت
ابنتى ، جعلت ماجنوس كروفت بائنة لها » .

فأطلقت الدوقة شهقة وسألته بتعجب :

— أأنت يا آرثر اقترحت عليه أن يتزوج كارولين ؟ كيف
فعلت شيئاً كهذا ؟ فأجابها الدوق :

— ظننت ذلك لطف دهاء منى ، فكل الناس كانوا يقولون :

إن الدوق الذى بلغ الرابعة والثلاثين يجب أن يتزوج ، وينجب
وريثاً . وأى شىء أكثر اتفاقاً مع المنطق من أن تكون كارولين هذه
الزوجة ؟

— ولكنها يا آرثر تحب إدوارد دالكيرك كما تعلم .

— هذا الشخص لا يملك بنساً واحداً ! بينما لنشستر أثمن عريس
لقطة فى القطر كله .

— ولكنك يا آرثر وعدت كارولين أنه إذا نجح إدوارد فى
تربية الخيول ، سمحت لهما بالزواج .

فقال الدوق باستعلاء :

— أنا لم أعد بشىء ، بل قلت فقط إنى سأفكر فى الأمر ، وها هو
جوابى الآن بالرفض ! كارولين ستتزوج لنشستر وستكون الأرض
جزءاً من بائنتها فى عقد الزواج . وستكون دوقة جميلة للغاية ، وتبرز
روعة مجوهرات لنشستر .

وشاعت الرقة فى صوت الدوق الذى يتسم بالجفاف ، فهو
لم يحاول قط مداراة إيثاره ابنته الكبرى كارولين بالحب والإعزاز .
فمع أنه شديد الفخر بولديه اللذين كانا فى أيتون ، إلا أن كارولين
هى التى تملأ قلبه — إن كان له قلب ! — وقد نجحت فى التحايل
عليه والتلطف إليه إلى أن قال لها إنها ستتزوج الرجل الذى تحبه :

وقالت الدوقة محتجة :

— ولكن يا آرثر ! كارولين عاشقة !

فقال الدوق بازدراء :

ـ الحب ! الحب ! وما علاقة الحب بهذا الموضوع ؟ الحب يأتى بعد الزواج يا إليزابث . ثم إن لنشستر ليس من المنتظر أن يقضى وقتاً طويلا مع زوجته ، فهو يعرف أين توجد الأشياء التى تهمه !

ـ الحق يا آرثر ، أنى لا أدرى كيف يمكن أن تقول شيئاً كهذا ؟...

فقاطعها الدوق قائلا :

ـ تعقلى يا إليزابث ! إن لنشستر تتعقبه وتطارده كل امرأة جميلة من ها هنا إلى القطب الشمالى منذ ترك المدرسة ، كما تعلمين ، وكلهن أنيقات محنكات ذوات تجربة ، ومتزوجات . وهو أعقل من أن يثير فضيحة بالفرار مع إحداهن .

ـ ولكن لماذا يتزوج كارولين بالذات ؟

ـ ألابد لى أن أصرح لك بأكثر من هذا؟السبب أنه يريد ماجنوس كروفت، وإذا كان سيتزوج إن عاجلا أو آجلا ـ وهو ما لابد منه ـ فأى شىء أنسب له من أن يتزوج الفتاة التى تأتيه ببائنة يعرف قدرها : عشرة آلاف فدان من أجود الأرض ، وكان أبوه قد فقدها لأنه كان ثملا لا يحسن الإمساك بورق اللعب ، وهو يريد هذه الأرض بأى شكل ومصمم على استردادها .

ـ أحسبك مدركاً أن كارولين سينكسر قلبها .

فقال الدوق بحدة :

ـ ستتغلب على هذا . فالفتيات صغيرات السن يتخيلن دائماً أنهن عاشقات لشخص غير مناسب . وهذه صفة إدوارد كالكريك فى اعتقادى .

ـ ولكن ... يا آرثر ! ..

فقاطعها الدوق قائلا :

ـ هذه كلمتى الأخيرة ! ولما كان لنشستر قادماً غداً بعد الظهر ، فمن المستحسن أن تخبريها منذ اليوم بما سيكون .

ـ ولكن .... يا آرثر ! ...

وسمعت إلفا صوت باب المكتبة ينغلق بشدة، بخروج الدوق .

ولم تتحرك إلفا : فقد كانت راقدة متصلبة على أرض الشرفة منذ بدأ أبوها الكلام ، وظلت تكتم أنفاسها طول الوقت، ولم تتجاسر على التنفس بعمق إلا بعد أن سمعت أمها تغادر الحجرة .

أممكن حقاً أن والدها رتب أمراً بهذه القسوة الشيطانية !

وكانت تعرف أنها لو لم تسمع بأذنيها ما قيل، لما أمكن أن تصدقه.

ونهضت قائمة على قدميها ، وأعادت الكتاب الذى كانت تقرؤه إلى مكانه فوق رف المكتبة ، وأسرعت تنزل درجات السلم البرنزى الحلزونى ، ثم شرعت تجرى بأسرع ما استطاعت خارجة من المكتبة ذات الأرض الرخامية والتماثيل ، واتجهت إلى سلم جانبى يؤدى إلى الطابق الثانى حيث تنام الفتاتان ، وحيث تحولت حجرة دراستها بعد رحيل مربية إلفا إلى حجرة جلوس خاصة بهما .

وكانت أنفاس إلفا قد تقطعت عندما وصلت إلى الباب ، فتوقفت برهة ، لا لكى تسترد أنفاسها فحسب ، بل أيضاً لكى تستجمع أفكارها وخواطرها .

كيف يمكنها أن تخبر كارولين ؟ وماذا عساها تقول ؟

وعرفت وهى تفتح الباب أنها أشبه برسول السوء والشؤم فى تراجيديا إغريقية .

* * *

وقالت كارولين للمرة المائة :

– لا أستطيع ... لا أستطيع ... أن أفقد ... إدوارد !

وحتى بينما كانت الدموع منهمرة على وجهها ، لاحظت أختها إلفا أنها لم تزل تبدو بديعة الحسن ، وأنه ما من رجل – حتى ولو كان الدوق لنشستر بكل وسامته وكثرة النساء الأنيقات المحنكات اللواتى يطاردنه – يفوته أن يجدها جذابة .

وقالت إلفا :

– أعرف هذا ياعزيزتى ، ولكن والدنا مصمم ،ولا أستطيع أن أفكر فى هذه اللحظة فيما يمكن أن نصنع لمنع الدوق لنشستر من التقدم لطلب يدك !

فقالت كارولين بصوت مرتعد :

– أستطيع أنا ... أن أقول ... لا ؟

– لا أظنه سيصغى لكلامك، ولا والدنا أيضاً ، ما دام رأيه قد استقر !

وكانت إلفا قد حاولت أن تبلغ الخبر بأقصى قدر من الرقة واللطف لكارولين .

وفى البداية كانت أختها قد شحب وجهها حتى خيل إليها أنها سيغمى عليها ، ثم انفجرت بطوفان من الدموع :

.ولم تكن كارولين شخصية قوية ، فهى رقيقة حلوة دمثة سهلة القياد ، وجميلة جداً بحيث إن كل رجل يقع بصره عليها ، يعيد النظر إليها مبهوراً .

وعرفت إلفا فى طوية نفسها أن كارولين تمثل بالضبط النمط الذى يجد فيه الدوق لنشستر دوقته المثالية . فهى طويلة القامة ، طولها خمسة أقدام وتسع بوصات : وشعرها أشقر ، بلون القمح الناضج ، وعيناها زرقاوان، ولون بشرتها أبيض وردى ، مشرب بحمرة ؛

ولم يحدث منها طيلة حياتها أنها سببت لوالديها لحظة قلق واحدة ، إلى أن وقعت فى غرام إدوارد كالكيرك! فهى تحبه جداً حتى أنه لم يكن لأى رجل سواه وجود فى نظرها . وكل من حاول التودد إليها وجد من المستحيل أن يستولى على انتباهها ، أو حتى يجعلها تفطن إلى مجرد وجوده . فسرعان ما تتبخر كل فكرة لديهم عن خطب ودها .

ولم يكن لدى والدها الدوق أى شىء ضد إدوارد ما عدا فقره .

إنه الابن الوحيد للفيكونت كالكيرك الذى يملك قلعة متداعية فى

ضيعة فقيرة هزيلة بأسكتلندا . ولما غادر إدوارد لواءه بالجيش ، الذى أدى فيه خدمة ممتازة ، قرر أن يحاول جمع شىء من المال بتربية الخيول .

وقد يسر له تحقيق هذا الطموح أن أحد أعمامه ترك له بيتاً و ٥٠٠ فدان على حدود أرض الدوق نورثالرتون ، وعن هذا الطريق قابل كارولين .

ومنذ أول لقاء ، ولأنه غرق فى حبها كما غرقت فى حبه ، عمل بكل حماسة وجهد ليجمع مالا كافياً ، بحيث يتسنى له أن يطلب إليها أن تكون زوجته .

ولكن لسوء الحظ أن إنتاج النوع الملائم من الخيول من تلك النوعية من المهارى التى يقدر على ثمنها مسألة تحتاج إلى وقت طويل ، ولذا لم يكن يتوقع أنه سيكون بوسعه مفاتحة الدوق والدها قبل مرور سنة أخرى على الأقل .

وقالت إلفا :

— أعتقد أنه يمكنكما الهرب معاً لتختفيا فى مكان لايستطيع بابا العثور عليكما فيه !

فانهمرت دموع كارولين وقالت :

— وفى هذه الحالة يفقد إدوارد المال الذى استثمره فى خيوله ، ولم نستطع العثور على بيت آخر يأوينا ، ولكنى لن أستطيع الزواج

من الدوق .. ولابد أن أتزوج إدوارد ! فأنا أحبه ! أحبه ! وأفضل الموت على الزواج من أى رجل سواه !

فنهضت إلفا قائمة ومشت إلى النافذة . إنها شديدة التعلق بأختها ، ولذا آلمها كثيراً أن تراها تعيسة هكذا .

ولكن بينما هى تدير فى رأسها كل حجة يمكن لأختها كارولين أن تحاول بها إقناع والدها بأنها يجب أن تتزوج إدوارد كالكيرك . ولكن إلفا كانت متأكدة أن الدوق لن يصغى لها ، وكانت تعرف مبلغ طموحه لكارولين .

فكم كان مزهواً عندما تنادى الناس أنها حسناء . واسترجعت إلفا الماضى فتذكرت سيما النصر على محياه عندما بدت كارولين بكل هذا البهاء فى أول حفل راقص أقيم لها .

كان ذلك منذ سنتين . وكانت إلفا حينئذ تلميذة فى المدرسة ما تزال ، ولكنها تتذكر جيداً أنها فكرت فى ذلك الحين وهى تلوى شفتيها أن والدها عندما يحين وقت إقامة حفل راقص لاستهلال دخولها المجتمع ، لن يكون فخوراً بها على نفس هذا النحو .

وأدركت أن والدها الدوق الذى كان يريد دائماً لابنته الأثيرة أن تلمع ، سيزهيه أن تلبس تاج الدوقية على شكل أوراق الشليك ، وأن يكون وضعها الاجتماعى أهم وضع فى إنجلترا بعد الأسرة المالكة مباشرة .

وكانت إلفا تعلم بوجود تنافس دائم بين الدوقين فى المقام والأهمية ، ولاسيما أن أملاكهما متجاورة منذ قرون .

ولقد كان دوق لنشستر الراحل رجلا منحلا بعض الشيء ، لذا كان والدها أكثر منه احتراماً وتقديراً فى الكونتية التى غدت أشبه بإمبراطوريته الخاصة .

ولكن الدوق الجديد ، الذى ورث الضيعة واللقب أخيراً ، شيء مختلف عن والده ، فهو صديق شخصى حميم لأمير ويلز ، وهو — على مبلغ علم إلفا — قطب الطبقة الاجتماعية الراقية فى لندن ، ولذا فهو موضع حسد وإعجاب من لايستنكرون بعض سلوك هذه الزمرة . وما من شك أن له نفوذاً فيه مسحة إمبراطورية .

ولم يكن تفكيرى هذا فى الدوق داعياً للدهشة ، فهو فى ميدان الصيد بارز جداً ، لا كراكب خيل ممتاز فى سرب كلاب الصيد ، بل وكشخصية لا يمكن تجاهلها .

أجل إنها لم تتحدث إليه قط ، ولكنها متأكدة من أنها ستجده متغطرساً ، بل ويشعرها بضآلتها ، وكانت تدرك أن رجلا مثل هذا سيجعل كارولين ولا حيلة لها ، بل منسحقة .

ولأن كارولين كانت دائماً سهلة القياد جداً ، لذا كانت إلفا — مع أنها أصغر منها بسنتين — هى القائدة ، ومدبرة كل ألاعيبهما ، وإذا ما عوقبتا ، كانت إلفا هى التى تحمى كارولين بتحمل التبعة كلها على عاتقها وحدها .

ولقد كان هذا عدلا ، على نحو ما ، لأن كارولين قليلة الحظ من الخيال ، أما إلفا فلديها من ملكة الخيال — على حد قول والدها — أكثر مما ينبغى !

وأخذت كارولين تغمغم ، وهى تبكى فى منديل بللته بدموعها :

— ماذا عساى أصنع ؟ ماذا عساى ... أصنع ؟ أنا لايمكننى أن أتزوج الدوق !

وحتى وهى تبكى كانت تبدو جميلة جداً ، مع أن أنفها قد احمر قليلا ، وعينيها الزرقاوين تسبحان فى الدموع :

وقالت إلفا بصوت مختنق هامس :

— لابد أن هناك حلا !

ثم أطلقت صيحة :

— عندى فكرة .!

ولم ترد عليها كارولين ، وكل ما هناك أنها ازدادت غوصاً فى كرسيها ، وارتفعت يداها مرة أخرى إلى عينيها !

ووقفت إلفا جامدة فى مكانها قليلا ، ثم قالت :

— أخذت الفكرة تتجلى ... وأراها الآن كالصورة المنشورة أمام عينى ! أستطيع أن أنقذها ! أعرف أننى أستطيع تنفيذها !

فسألتها كارولين بغباء :

— تنفيذ ماذا ؟

— أستطيع إنقاذك !

– من الزواج بالدوق ؟

– نعم . من الزواج بالدوق !

– كيف ؟ كيف ؟ أعلم أن بابا لن يصغى لما أقول ... وإدوارد ليس لديه مال فى الوقت الحاضر ، وقال لى عندما رأيته بالأمس : إنه اضطر للاستدانة من البنك لكى يشترى تلك المهارى الأخيرة .

فقالت إلفا بحزم :

– حتى لو اقترض إدوارد من البنك مليون جنيه ، فلن ينقذك هذا من أن تصبحى دوقة !

– أعرف . أعرف هذا .. ولكنى لا أريد أن أكون دوقة ! كل ما أريده هو أن أتزوج إدوارد ، وأعيش فى ذلك البيت الصغير العزيز ... بمفردى معه !

وتحشرج صـوت كارولين ، وجرت الدموع ، على خـديها وتناثرت منهما على مقدمة ثوبها . وقالت لها إلفا :

– أصغى ! أصغى لى يا كارولين !

وركعت على ركبتيها أمام أختها وأخذت يديها بين يديها وقالت :

– لقد فكرت فى كيفية إنقاذك . ولكن عليك يا عزيزتى الغالية أن تنفذى بالضبط ما أقوله لك ، أتعديننى بذلك ؟

– أنا مستعدة أن أعدك بأى شىء إذا كان معنى هذا أن أتزوج إدوارد ...

– عظيم جداً . والآن أنصتى لى جيداً :



وركعت على ركبتيها أمام أختها وأخذت يديها بين يديها وقالت :
– لقد فكرت فى كيفية إنقاذك ..

وقف دوق لنشستر يرقب مركبة دوق نورثالرتون وهى تبتعد عن بابه الأمامى . ثم عبر البهو الكبير إلى حجرة المكتب ، حيث كان من عادته أن يجلس .

وهى حجرة مريحة حسنة التصميم . ومع أن الكتب فيها قليلة ، إلا أن معظم الجدران مغطاة بمجموعة فاخرة من صور الخيول التى نقلها من حجرات أخرى مختلفة بالقصر . وهذه اللوحات لكبار الرسامين ، وقد جمعها واقتناها أحد أسلافه ، ولكنه حين أعاد تعليقها معاً أدخل تحسيناً كبيراً على إحدى حجرات القصر فأصبح من يراها لا يكاد يعرفها ، وقد صمم على أن يجعل سائر الحجرات بمثل هذا الكمال .

والحق أنه كان من عشاق الكمال فى كل شىء — وإن لم يعترف لنفسه بهذا — ولذا كان يجب أن يكون كل ما يحيط به متعة للعين ومتعة لذهنه . ولذا كان يضايقه أن يرى قصره « نشستر هاوس » نهباً للفوضى من أيام أبيه ، ومنذ أيام جده أيضاً بلا ريب .

وهذا القصر بناء مهيب تم بنيانه حوالى سنة ١٧٥٠ م ، فكان حينئذ نموذجاً للعمارة الجورجية والذوق الجورجى معاً ، وموضع إعجاب كل من رآه .

وكان الدوق الثانى بين حاملى هذا اللقب لا يهتم إلا بالنساء والخيول . أما الدوق الثالث فكان به هوس القمار ، وذلك ما كلف الضيعة أموالا كثيرة وخسارة عدد كبير من اللوحات الفنية .

وملئت الفراغات المتخلفة عن غياب هذه اللوحات بأى لوحات حيثما اتفق لها نفس الأحجام ، نقلت من حجرات بالقصر أقل أهمية ، فكانت النتيجة فى رأى الدوق الحالى غير فنية وغير ممتعة معاً .

ولكن ها هو الآن قد بدأ ينسق القصر على هواه . ومع أن القصر اكتسب رشاقة جديدة وذوقاً فنياً جديداً ، إلا أنه كان يعلم فى قرارة نفسه — عندما يفكر فى الأمر — أن ما ينقص هذا القصر كى يتم بهاءه إنما هى اللمسة الأنثوية .

ولكن هذا — للأسف — لا يمكن أن يتم إلا بعد أن يتزوج وتشاركه زوجته المبنى ؛ لأنه مصمم منذ سنوات على ألا يتزوج ، لعلمه أن الزواج سيعكر عليه حياته المرحة المسلية جداً التى يحياها فى لندن ، وسيكدر عليه لذته التى لايستمدها من معاشرة امرأة واحدة ، بل العديد من النساء .

أما الآن — فبصرف النظر عن إلحاح ذوى قرباه — فهو مدرك تمام الإدراك أن الوقت قد حان أن ينجب أطفالا ، وبالأخص وريثاً يحمل من بعده اللقب الفخم .

بل قالت له جدته بسخريتها اللاذعة عندما رآها فى آخر مرة :

— إن أنت انتظرت طويلا فستكون قد بلغت من العمر عتياً ، فلا تقدر أن تدرب ابنك بنفسك على الصيد فى البرارى والغابات ، ولا على ركوب الخيل ...

ولم يجبها ، وأردفت :

– إنى ليحزننى أن تظل مجوهرات لنشستر حبيسة فى خزانة ، فتفقد اللآلئ النادرة بريقها الأخاذ ويخضر لونها لأنها لا تلامس بشرة دافئة .

وضحك الدوق ، ولكنه كان يدرك أن جدته تتحدث حديث العقل :

ولكنه عندما فكر فى الأمر بعد ذلك تعجب كيف يتسنى للمرء الزواج وهو فى المجتمع الراقى جداً الذى يعتبر فيه ملكاً متوجاً قلما يقابل فتاة . طبعاً كان هناك عشرات منهن واقفات دائماً بجوار أمهاتهن ، وتبدو عليهن البلاهة والسذاجة والخيبة .

وفى الحفلات التى كان يقيمها شخصياً بقصره ، وفى تلك الحفلات التى كان يحضرها ، كان يتم اختيار الضيوف بدقة شديدة ، وكان الشرط الأول لذلك أن يكونوا مسلين ، وهذا الشرط نفسه ينطوى – فى نظر الدوق – على صفتين أخريين ، أن النساء لابد أن يكن فاتنات وخلابات !

وهذا بالقطع ما وجده فى الجميلات المحنكات اللواتى كن ينظرن إليه نظرات ذات معنى من تحت أهدابهن الطويلة ، وهن يلوين شفاههن الحمراوات بإغراء وإثارة وتحد ، مظهرات بكل جلاء أنهن راغبات فى إنشاء علاقة ملتهبة معه ، تعادل رغبته فى ذلك ، وإنه لشغوف بالجميلات تواق إليهن .

فى هؤلاء الشغوفات بالوسيمين الوجهاء من الرجال يجد كل

ما يمتعه ، متعته بيوم صيد وقنص ، ومعهن يعرف لذة التعقب والمطاردة ، ولذة الظفر الدموى ! ولا أحد يلحقه ضير أو أذى من فوزه بهذه المتعة العارمة .

وإن كان هذا الظن لا يصدق دائماً ، فقد كان من يمارس معهن الدوق الحب لا يطيش صوابهن فقط ، بل تطيش قلوبهن أيضاً .

وإنه ليتساءل أحياناً – عندما يتأمل مشاعره –: لماذا يمل بسرعة كل جميلة تشغف به وتتدله فى حبه وتستسلم له قلباً وقالباً ، ولا يلبث أن يزهد فيها ، ويبحث عن غيرها ؟

وانتهى به التفكير إلى أنه كلما فكر فيهن – وهن بعيدات عن أحضانه – استطاع أن يتكهن بما ستقوله الواحدة منهن بالضبط ، وما ستعمله ، ما دام ليس منهمكاً فى ممارسة الحب معها فى الفراش . ويعرف سلفاً المغريات التى سوف يستخدمها ، فى ضوء ما عرفه منهن سابقاً من أفانين . وعندئذ يصبح شديد الرغبة فى طى هذه الصفحة ونسيان كل شىء عن هذه المرأة .

ولكن ليس العمل سهلا كالقول ، فمن يعشقنه يتشبثن به ويلمنه على هجرهن ، وهذا ما يزيد ضجره منهن أضعافاً مضاعفة ، حتى إنه يسأل نفسه أحياناً : فيم هذا العناء كله :

وهو يعتقد أنه يحب النساء مثلما يحب الخيول ، ولا يمكنه أن يتصور الحياة بدون نساء وخيول ، ولكنه صار الآن يحب أيضاً أن يكون له أولاد .

وفى الفترة الأخيرة كان يفكر فى كيف سيعلم ابنه كيف يقدر التحسينات التى أدخلها على قصره « ستر هاوس » . وسيعلمه كيف يقنص ويصيد بسرب الكلاب السلاقى التى يزهو بها ، ولاريب أنه سيبدأ فى تدريبه على الصيد فى سن مبكرة ، حتى يغدو صياداً ماهراً لايخطىء هدفه أبداً ، مثله هو .

وسيعلمه كيف يصيد السمك من البحيرة ، ثم يأخذه معه إلى أسكتلندا ، حيث لن ينسى نشوة أول ظفر له بصيد سمك السلمون وهو فى سن الثانية عشرة .

والواقع أن اقتراح الدوق نورثالرتون بتزويجه من ابنته كارولين نزل عليه على نحو ما نزول القنبلة . ولكنه لما فكر فى الأمر قرر أن ذلك سيكون حلا مرضياً للمشكلة التى شغلت باله منذ مدة .

وتذكر أنه قيل له إن الليدى كارولين آلرتون رائعة الجمال ، وفى ظنه — وإن لم يكن متأكداً — أنه لمحها ذات مرة فى ميدان الصيد .

إنها طويلة زرقاء العينين ، ولاريب أنها ستبدو على أتم أبهتها وبهائها وهى متحلية بحلى السافير التى كانت أمه مزهوة بها ، وتؤثرها على غيرها من مجوهراتها ، وهو متأكد أيضاً أنها سترين حلى الفيروز التى تضاهى لون عينيها .

ولكن الأهم من هذا كله هو تلك الضيعة المسماة «ماجنوس كروفت» التى ستعود إلى حوزته وتنضم إلى ضيعة لنشستر المترامية . فقد كان

الدوق يستشيط غضباً لأن والده فرط ببلاهة وسفه فى أى قطعة من أرضهم .

وما كان عليه إلا النظر إلى الخريطة المعلقة فى مكتب الدائرة كى يشعر بفورة الغضب وهو يرى ضيعة ما جنوس كروفت الموغلة فى أحشاء الضيعة كأنها « بزبوز » إبريق الشاى ، وقد لونت باللون الأخضر بدلا من اللون الأحمر الذى يصبغ سائر أراضيه :

وقال الدوق لنفسه :

— بهذا أعيد الأمور إلى نصابها الصحيح بالضبط .

وتساءل ماعسى أن تقول « إيزوبل » عندما تسمع أنه سيتزوج ؟

وإيزوبل هى كونتس والشنجهام ، وهى أحدث عشيقاته ، ولم يصل بعد إلى درجة السأم منها . فهى أذكى وأعظم فطنة وروح دعابة من النساء الأخريات اللواتى ارتبط بهن فى السنوات الأخيرة ، فهى تجعله يضحك ، وهذا أمر غير مألوف ، وإن كان يعلم أن كل ما تقوله فهو على حساب شخص آخر ، أى أنها نمامة !

ولكنها تبدو فى أوج جاذبيتها عندما تلمع عيناها الزرقاوان بالشر وتنفث سمها !

ثم إن حرارة تجاوبها حين يمارسان الحب أشبه بالتحدى بفحولته ، وتجعله عاجزاً عن مقاومة سحرها الجنسى .

بيد أنه قال لنفسه إنه لا سبب إطلاقاً يدعو إلى أن يحول زواجه

دون إشباع شهواته الأخرى وهواياته النسائية ، ما دام يراعى قدراً مناسباً من التكتم :

إن فى نيته أن يعامل زوجته بكل احترام ، وألا يصدر عنه ما يحرجها ، أو حتى يشعرها بأنه يخونها .

وبما أنها زوجته الدوقة ، فلها كل الحق فى أن تشغل مكانها إلى جواره فى جميع المناسبات الاجتماعية ، وهو يعلم أنهما سواء أكانا فى قصر بكنجهام ، أو فى قلعة وندسور ، أو قصر سستر هاوس ، فهو كفيل بأن تستقبل وتعامل بما يليق بمكانتها الرفيعة . وقال فى نفسه :

– لن يساورها الندم من هذه الناحية .

وكل الفرق بين سلوكه فى المستقبل وسلوكه فى الماضى – وحتى الآن – هو أن مقابلاته مع إيزوبل أو أى امرأة أخرى تخلب لبه ستكون فى طى الخفاء :

وجلس الدوق إلى مكتبه يقلب كومة الخطابات والدعوات التى وضعها سكرتيره هناك كى يبدى رأيه فيها . وفيما هو منهمك فى ذلك انفتح الباب . ورفع الدوق بصره باسماً وهتف :

– هالو هارى ! يسعدنى أن أراك ، وأنك حضرت مبكراً قبل الآخرين .

ونهض وهو يتكلم ومد يده ، وأجابه صديقه هارى شلدون قائلا :

– كان فى نيتى أن أحطم رقمك القياسى فى الوصول إلى هنا ، ولكن يجب أن أعترف أن خيولى ليست فى مستوى خيولك !

– كم من الوقت استغرقت ؟

– ساعتين و ٢٣ دقيقة .

– تخلفت بمقدار دقيقتين .

– أعلم هذا ، فلا تلح فى إغاظتى .

وألقى بنفسه فى مقعد مريح ، وهو يقول :

– إنى على كل حال أستحق كأساً من الشمبانيا الباردة .

فاتجه الدوق إلى منضدة فى الركن ، عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة فى دلو من الذهب به ثلج ، وقال هارى شلدون :

– فاتتك حفلة بهيجة بالأمس ياسلفانوس ، تعشينا فى محل هوايت ثم ذهبنا إلى بيت جديد للمتعة افتتح أخيراً فى هايماركت ، وكانت هناك عصافير حب من فرنسا ، من أجمل ما رأته عيناك ، وقد استمتعت كثيراً بغنجهن ...

– فى وسعك أن تأخذنى إلى هناك الأسبوع القادم ... وبالمناسبة ! أنا مقدم على الزواج يا هارى !

فكادت الكأس تقع من يد شلدون وصاح :

– ماذا قلت ؟ تتزوج ؟

فهز الدوق رأسه ، وهتف هارى :

– ياإلهى ! إذن أنت قد عزمت أخيراً ؟ ولكن ممن ستتزوج ؟ ولماذا لم أقابلها ؟

– أنا نفسى لم أقابلها بعد !

– أجاد أنت ؟

– كل الجد !

– إذن من هى ؟

– إنها ابنة الدوق نورثالرتون ، فقد عرض على لتوه أن أتزوجها ومعها العشرة آلاف فدان ؛ ضيعة ماجنوس كروفت .

– لا أصدق هذا !

– ولكنها الحقيقة !

– إذن أنت الرابح ! فقد أقسمت أن تسترد تلك الأرض التى ضيعها أبوك فى لعب القمار .

– نعم أنا الرابح ! وأظنها صفقة طيبة ، خصوصاً أنه قيل لى إن كارولين ألرتون رائعة الجمال .

– كارولين آلرتون ؟ ولكنك لم تلتق بها قط !

– بالطبع لا . فآل لنشستر كانوا مقاطعين لآل نورثالرتون منذ رفض الدوق إعادة الأرض عندما بين له أبى أنه لم يكن فى وعيه عندما قامر بها .

– ومن ذا يلوم الدوق نورثالرتون ؟ الرهان رهان ، ودينه واجب السداد ! مسألة شرف !

– بالضبط ! وفى الوقت نفسه اعتقد أبى أن الدوق ليس على حق وقطع كل الاتصالات به ، إلا على الأساس الرسمى المحض !

– وهل عرض عليك ابنته على أساس رسمى أيضاً ؟

– بالضبط ! والواقع أن لنا عدواً مشتركاً ، وهو دخيل يحاول جلب سرب جديد من كلاب الصيد إلى الكونتيه . وفيها سربان ، أحدهما لى ، والآخر يملكه الدوق نورثالرتون . لذا وجب أن نتحد لصد هذا الدخيل من حيث أتى !

– والنتيجة النهائية لهذا الاتحاد هو أنك قررت الزواج من ابنة الدوق !

– لقد اقترح هذا ، وبدا ذلك ترتيباً معقولا ، فوافقت .

فألقى هارى رأسه إلى الوراء وقهقه ، ثم هتف :

– معقولا ؟ كيف يمكن ياعزيزى سلفانوس أن يكون معقولا زواجك من فتاة لم ترها من قبل ، لا لشىء إلا لأنها ستأتيك بمساحة من الأرض كنت دائماً تشتهيها ؟

– ومعى حق . لأن هذه الأرض كانت دائماً ملكاً لدائرة لنشستر !

– اللعنة على كل شىء ! أتفكر فى الزواج بهذه الشروط ؟

– ولم لا ؟ إنها فتاة حسنة التربية ، ولا أحد يمكن أنه يمارى فى هذا ، وقد قيل لى إنها حسناء ، وبصراحة ياهارى ، أعتقد أنه آن لى أن أتزوج !

– هذا ما اعتقدته وفكرت فيه الخمس سنوات الأخيرة ! آن لك أن تستقر ، وقبل كل شىء أنت بحاجة إلى وريث !

– كأنك جدتى وأنت تقول هذا .

— جدتك حصيفة ، ولكن يجب على كصديق قديم لك أن أنبهك إلى أن هذه الطريقة ليست المثلى للزواج .

فقال الدوق متهكماً :

— أنت تتكلم بالطبع بوصفك حجة فى الموضوع !

— لا . ولكن بوسعى أن أقول لك : إنى لن أربط نفسى بامرأة إلا إذا تأكدت تماماً من تعلق وشغفى بها ، ومن أننى أطيق حديثها على الإفطار !

— ليس هناك قانون يحتم على المرء أن يفطر مع زوجته !

— وليس هناك قانون يحتم عليك الإصغاء لها ، ولكن هذا شىء لامفر منه فى حالة الزواج :

ووقف الدوق وظهره إلى المدفأة ، وعلى محياه سيما العناد ، وقال :

— كل هذا حسن يا هارى ! فمن السهل العثور على الأخطاء ، ولكنك أنت وجدتك متفقان مع عشرة من أقاربى الآخرين فى القول بأنى يجب أن أتزوج .

— ولكن على الطريقة اللائقة ...

— ولكنى لست فتى غراً حتى أقع فى غرام وجه جميل ، ولست غراً أيضاً بحيث أصدق أن فتاة خرجت لتوها من المدرسة يمكن أن تكون مسلية أو تعرف أى شىء عن الأمور التى تهمنى أو تشوقنى .

وشرع هارى يتكلم ولكن الدوق بسط يده لإيقافه ، واستطرد :

— دعنى أتم كلامى . لقد فكرت فى هذا ملياً . وبما أنى لا رغبة لى فى

أن تكون لى زوجة شهوانية ، فأنا مضطر أن أتزوج فتاة صغيرة السن ، وآمل أن تكون ذكية بما فيه الكفاية لكى تكون مستحبة ، لا لى فحسب ، بل لأصدقائى أيضاً ، وإذا كانت حسنة النشأة والتربية فسوف تشرف الطرف الآخر لمائدتى ، وتتعلم بعد عدد قليل من الأخطاء كيف تكون ربة بيت ومضيفة مجيدة .

— أوافق على هذا كله ، ولكن ما العمل حين تكونان وحدكما معاً ؟

ولاح شبح ابتسامة على وجه الدوق وهو يجيبه ، قائلا :

— فى هذا أنت على حق ؛ ولكن لماذا نظل وحدنا إلا فى مناسبات نادرة جداً ؟ وفى الأيام الخوالى ، كما تعلم ، كان يعيش فى قصر بهذا الحجم المترامى لا الدوق والدوقة فحسب ؛ بل به عدد كبير من الناس منذ أيام جدى الكبير المركيز ستر ، قبل حصوله على لقب دوق . كان هناك الأبناء ، وأقارب آخرون ؛ وجدات وعمات وخالات وأبناء وبنات عم وعمة ، وأصدقاء قدامى ، وقسيس ، وممرضات ومربيات ، ومؤدبون خصوصيون من كل صنف وجنس ! لذا كان القصر فى الواقع غاصاً بالناس ، بخلاف الضيوف الذين كانوا يلقون كل كرم ضيافة وبذخ على مدار السنة !

وضحك هارى ، وقال :

— هذه إذن هى الحياة التى تخطط لها ، حياة « شيخ القبيلة » أو « أب القبيلة » ، أم لعل الأفضل أن أقول حياة ملك فى بلاط خاص به ؟ وأتمنى أن تدعونى لشغل وظيفة « مضحك البلاط » .

– وهل يمكنك أن تكون سوى هذا ؟ ولكن قل لى بجد يا هارى : أتبينت فكرتى ؟

– طبعاً تبينتها ، وأتمنى أن تكون دوقتك على ما ترجو منها تماماً ، أى أن تكون دمية تحركها الخيوط التى تمسك بها أنت ، وإنك متى جذبت خيوطها رقصت إلى أن تنصرف عنها وتتجاهلها ، فتكف !

– كف أنت عن وعظى ! فأنت تعلم ، كما أعلم ، أن هذه كانت هى الطريقة التقليدية للحياة منذ عصر إليزابث ، عندما شيد أول جد من آل شستر قصره هنا ودعا الملكة للنزول به .

– وهل جاءت ؟

– طبعاً . وأنفق هذا الجد مبلغاً طائلا جداً على ضيافتها .

– أوه . ولكنك لن تدعو الملكة ، فمن ذا الذى يريد أرملة وندسور ! ولكن أمير ويلز سيستمتع بلا ريب بحفلاتك . وكذلك ستستمتع بها ... إيزوبل !

وأدرك الدوق عند ذكر اسم إيزوبل أن هارى يريد أن يوجه إليه سؤالا ، فنظر فى عينى صديقه وقال :

– وطبعاً ستستمتع بها إيزوبل !

– فى هذه الحالة أتمنى على الله أن تكون دوقتك بلهاء . وإلا فسوف يسلقها لسان إيزوبل ، ويعذبها تعريضها بها وغمزها لها . ما لم تتدخل لمنع ذلك ، وإلا انفجرت الدوقة تذرف دموعها مدراراً بعد خمس دقائق من دخول إيزوبل القصر ...

– فى وسعى التحكم فى إيزوبل ، ولن أسمح لها بأى شىء من هذا القبيل .

– أشك فى قدرتك على منعها ، فستكون كاللبؤة التى تدافع عن قرينها ضد الجميع ، ولن تكون أمام زوجتك أدنى فرصة عندما ينتهى الأمر إلى قتال بالمخالب !

فقال الدوق بحدة :

– لن يصل الأمر إلى هذا الحد ، وعلى كل حال سأرتب كل شىء كى يعامل الجميع ، بما فيهم أنت ! ، زوجتى بكل احترام !

– كنت أعتقد دائماً أن كل « الاحترام » بالإضافة إلى « الواجب » و « الالتزام » و « المسئولية » ذات ظلال سخيفة ومملة ، فإذا كان لزوجتك أى نصيب من خفة الروح والذكاء ، فسوف تحتاج إلى ما هو أكثر كثيراً من الاحترام .

– صه يا هارى ! إنك تحاول أن تجعلنى أندم على قبولى عرض دوق نورثالرتون ، وغداً سأذهب إلى قصر تاورز لأطلب يد ابنته رسمياً للزواج !

ولم يعلق هارى شلدون بشىء ، وبعد قليل قال الدوق :

– اللعنة ! وما البديل ؟ أنت تريد منى أن أتزوج ، وقد طاردتمونى بهذا الحديث سنوات ، وها أنت الآن تضع العراقيل فى

طريقى، وإن لم أتزوج كارولين آلرتون ، فستكون فتاة غيرها لم ينبت ريشها بعد ؟

وسكت هارى قليلاً ثم قال :

ـ ولكن بالطبع لن يعرض عليك أحد فى هذه الحالة كل تلك المساحة من الأرض !

ـ لا أحد ! ومهما يكن من شىء ، فالأجيال القـادمة من آل تشستر سوف تباركنى بلاريب بسبب هذه « التضحية » من أجلهم !

ـ التضحية ! هذه هى الكلمة الصحيحة ، أم عساى أقول إنك تبيع نفسك وحريتك لقاء صحفة العدس ؟

ـ بل لقاء عشرة آلاف فدان !

ـ نفسى تحدثنى أنك ستدفع ثمن كل فدان منها غالياً !

وضحك الدوق وقال :

ـ إن لم تكف عن نبوءات السوء هذه . أعدتك إلى لندن ! اسمع ! إن ما أنت بحاجة إليه الآن كأس أخرى من الشمبانيا المثلجة. آه ! وقد نسيت أن أقول لك إنه ستكون من بين الضيوف الفاتنة مرجريت التى ستصل هذا المساء خصيصاً من أجلك !

فاعتدل هارى شلدون فى جلسته ، ولمعت عيناه :

ـ وهل قبلت ؟

ـ بكل تلهف ! وامسك أعصابك جيداً ، فإنها قادمة وحدها . ذلك أن جيمس عليه النوبة فى قصر بكنجهام .

فشهق هارى شهقة حبور وهتف :

ـ سلفانوس ، أنت بطل ! ها أنت قد جلبت إلى حياتى نوراً جديداً ومبعث بهجة وسرور : ويوماً ما سوف أرد لك هذا الجميل .

ـ وأنا أقيدك بهذا الوعد، فالله يعلم أنى إن تزوجت ربما احتجت إلى عونك !

* * *

الفصل الثانى

قال الدوق نورثالرتون بنبرة الاتهام :

– مالكن صامتات ؟

وكان يوجه الخطاب فى الظاهر إلى الجميع على مائدة الغداء ، ولكنه كان ينظر إلى كارولين ، ونظرت إليها إلفا أيضاً بتوجس ، فقد كانت تدرك أن كارولين تتحكم فى مشاعرها بكل صعوبة .

وكانت قد أعدتها قبل أن استدعاها والدها فى الصباح وقال لها :

– عندى لك أخبار طيبة جداً ، وأنا أعدك يا كارولين فتاة مجدودة جداً .

– لماذا يا بابا ؟

– لأن دوق لنشستر يريد أن يتزوجك ، وسيحضر بعد ظهر اليوم لكى يطلب يدك رسمياً للزواج .

ولم يظهر على الدوق أنه متوجس من رد الفعل لدى ابنته ، فيما عدا أن صوته كان أعلى وأكثر حزماً من المعتاد .

ومع أن كارولين كانت تعرف من إلفا أن هذا ما سيقوله لها أبوها ، إلا أنها كادت تنفجر باكية. ثم تذكرت تعليمات إلفا القاطعة واستطاعت أن تقول :

– هذه .. مفاجأة كبيرة ... يا بابا ... ولكنه شرف عظيم .

فقال الدوق بارتياح :

– هذا ما كنت أعرف أنك ستقولينه ، إنه فعلا شرف عظيم جداً ، ولا أستطيع أن أتخيل شيئاً أحب إلى نفسى يا عزيزتى من أن أراك دوقة ، وأعرف أنك تعيشين بجوارنا ...

وهربت منه كارولين بأسرع ما استطاعت ، وجرت تصعد السلالم إلى حجرة الدراسة ، وألقت بذراعيها حول إلفا ...

كانت ترتجف ، ولم تستطع الكلام : وسألتها إلفا :

– هل أجبته كما أفهمتك ؟

وهزت كارولين رأسها إيجاباً ... فقالت إلفا :

– خيراً صنعت. فهو يجب ألا يشك لحظة واحدة أنك ستقاومينه.

فقالت كارولين بصوت مرتعب :

– ولكن افرضى ... افرضى ...

فقاطعتها إلفا :

– دعى كل شىء لى ، والزمى أنت الهدوء والسكينة على مائدة الغداء ، وليكن كلامك أقل ما يمكن !

– أعرف أنى سأبكى ... سأبكى ...

– إن بكيت دمرت كل شىء ، فهذه فرصتنا الوحيدة يا كارولين ، وإذا أفسدتها لم يبق أمامك مخرج ، ولن ينقذك أحد أو شىء من أن تتزوجى الدوق !

وكان هذا التهديد كافياً لكى تبذل كل ما فى وسعها لتتصرف كما أمرتها إلفا :

أما الآن ، فقبل أن يتسع الوقت أمام كارولين لكى تجيب أباها ، قالت إلفا :

– أعتقد أن الطقس هو الذى أصاب كارولين بالصداع .

فالتفت الدوق إلى ابنته الصغرى قائلا :

– ومن قال إنها مصابة بالصداع ؟

– قالت إنها مصـابة به منـذ استيقظت فى الصباح ، وهـذا ما جعلنى أظن أننا سنسمع الرعد اليوم .

– هـراء !

ونظر إلى زوجته الدوقة وقال :

– إن كانت كارولين مصابة بصداع ، أعطها شيئاً يشفيها منه ، بشرط أن تكون مرتدية أجمل أثوابها فى الساعة الثالثة !

فقالت الدوقة متضررة لأن هذا سيقصر وقتها الذى تقضيـه فى الحـديقة :

– فى الساعة الثالثة ؟

– لنشستر سيكون هنا بعد ذلك بساعة ، ولكنى لا أريد «هرجلة» عند حضوره لأنكما لم تتما زينتكما .

– بالطبع لا يا آرثر .

– لذا أريدك أنت وكارولين أن تكونا فى قاعة الاستقبال فى تمام الثالثة .

– وهو كذلك يا آرثر .

وانطلق الدوق بعد ذلك فى منولوج طويل عن جور أولئـك الناس الذين جاءوا إلى الكونتية وخيل إليهم أنه فى وسعهم إدارتها على هواهم .

ولم تكن الدوقة مصغية ، وكذلك كارولين ، أما إلفا فكانت تعلم أن والدها لم يزل حانقاً على ذلك السيد منكود الحظ الذى يحاول أن يكون له سربه الخاص من كلاب الصيد . ولأنها كانت تريد أن تبقى انتباهه بعيداً عن كارولين ، راحت توجه إليه أسئلة ذكية كان الدوق يرد عليها إما بغضب أو بازدراء ، ولكن استطاعت أن تجعل هذا الموضوع يمتد حتى نهاية الوجبة .

ولما أسرعت الدوقة إلى الحديقة لقضاء دقائق بها قبل أن يتعين عليها تبديل ثيابها ، صعدت كارولين وإلفا إلى الطابق العلوى .

وقالت كارولين فى أنين :

– الحقيقة أنه أصابنى صداع فعلا .

– طبعاً يا حبيبتى ، وعليك أن تقنعى ماما عندما تصعد لإحضارك أنك مريضة جداً بحيث لا تقدرين على الحركة .

فقالت كارولين فى همسة فزع :

– وماذا ... لو جرجرتنى ... إلى أسفل ؟

– لن تستطيع هـذا إذا كنت ، كما أوصيتك ، بملابسك الداخلية . ألقى ثوبك على كرسى كأنك كنت تهمين بارتدائه ، ولكن غلبك الإعياء فانهرت على الفراش !

– أوه يا إلفا ... أنا مرتاعة ! وافرضى أنها لم ... تصدقنى ؟

– فكرى فى إدوارد وستكونين قادرة على التمثيل بكل إتقان ، فالشىء الوحيد الذى لابد منه أن تمنع للدوق من تبين مبلغ جمالك !

وجلست كارولين بتراخ على مقعد ، وذهبت إلفا إلى حجرتها الخاصة لكى تبدل ثيابها وترتدى زى ركوب الخيل ؟

وفى منتصف الثالثة (أى الثانية والنصف) زودت كارولين ببعض التعليمات الأخيرة ونزلت السلالم، ثم خرجت من باب جانبى للقصر ، واتخذت طريقها إلى الإسطبلات .

ونظر إليها كبير السياس فى تعجب ، وقال بدالة الخادم القديم :

– لم أكن أتوقع حضورك بعد ظهر اليوم يا ليدى ، فقد اعتقدت أن الجميع فى القصر سوف يكونون مشغولين جداً بزيارة صاحب الفخامة .

ولم تدهش إلفا إطلاقاً لأن جارستن عرف أن دوق لنشستر كان قادماً للزيارة ، وكان يعرف أيضاً أسباب هذه الزيارة .

إن والدها كان يتكلم دائماً على المائدة بصوت عال ، وكأن الخدم صم أو مجردون من كل فضول بشرى ، ولذا لا غرابة فى أن كل من فى القصر عرف الآن أن العداوة القديمة بين الدوقين قد انتهت ، ولماذا انتهت :

وقالت إلفا لجارستن :

– لا حاجة بهم إلى فى القصر ، ثم إن « سوالو » كما تعلم يحتاج إلى تمرين .

وسوالو هو حصانها المفضل الخاص بها ، وقال جارستن باسماً :

– هذا صحيح يا ليدى ، ولكن عليك هذه المرة أن دستر معك ليلاحق سوالو ...

– دستر مناسب جداً ، ويستطيع « بن » أن يركبه .

– بن ؟ إن سعادتك تركبين دائماً مع جيم ...

فقالت بإصرار :

– ولكنى أريد « بن » هذه المرة معى :

والمسألة أن « بن » هذا كان أغبى صبيان الإسطبل، ولذا ينتظر منه أن ينفذ حرفياً كل أمر يلقى إليه دون مناقشة .

وبعد خمس دقائق كانت إلفا على ظهر سوالو تجتاز البستان الكبير المحيط بالقصر .

وكان الحصان صعب القياد عندما كانوا يشدون فوقه الركاب والسرج ، ولكن لأن إلفا كانت الآن على ظهره ، لذا استجاب ، كالعهد به دائماً ، لأقل لمسة منها .

وسرعان ما نسيت كل شىء ، اللهم إلا متعة أنها تسابق الريح فوق صهوة جواد ممتاز جداً ، تحبه أكثر مما تحب أى أحد أو أى شىء فى هذه الدنيا .

وركبت عبر البستان ، ثم عبر الحقول ، ثم اتجهت شمالا بشرق عبر الريف ، وهو اتجاه قلما سلكته من قبل .

وكانت تعلم أن جيم لوكان معها لكان سألها الآن أسئلة مستطلعة مثل أين هى ذاهبة ؟ أما بن فظل يتبعها فى صمت ، مركزاً اهتمامه كله فى جعل دستر يلاحق سوالو .

وركبا إلى درب مترب تعترض ضيعة آلرتون ، وتدخل فى الأراضى المملوكة لدوق لنشستر .

وهناك كبحت إلفا جوادها ، مدركة أن الموقع الذى اختارته لوقوفها يمكنها أن ترى منه كل شىء من مسافة بعيدة ، وأن الفيتون العالى الذى سيستقله الدوق سيكون مكشوفاً لها قبل أن يصل إليها بميل على الأقل .

وكان « بن » قد أوقف دستر خلفها ، ولكنه لم يقل شيئاً ، بل ربض ببلادة وثبات فوق السرج .

وتلفتت إلفا فلم تر شيئاً ، فقالت :

— اسمع يا بن ، لقد جئنا إلى هنا لأن الدوق — كما لا شك تعلم — أعنى دوق لنشستر سيزور قصرنا بعد ظهر اليوم .

— سمعت بهذا يا سعادة الليدى .

— الليدى كارولين ووالدتى تريدان أن تكونا جاهزتين لاستقبال صاحب الفخامة عندما يصل ، ولكن صاحبة الفخامة والدتى لن يطاوعها قلبها على مغادرة الحديقة إلا فى آخر دقيقة .

— أجل يا سعادة الليدى .

— وما أريد منك أن تفعله الآن أن تركب بأقصى سرعة بمجرد أن تلمح اقتراب صاحب الفخامة ، فتعود إلى إميلى التى ستكون فى انتظارك عند مدخل بهو الخدم ، فتخبرها أن صاحب الفخامة فى الطريق .

— إميلى يا صاحبة السعادة ؟

— نعم . إميلى .

وهى أصغر خادمة من المخصصات لكارولين ، وقد أمرتها إلفا بالانتظار عند باب المطبخ فى الساعة الثالثة إلا خمس دقائق . وكانت قد قالت لكارولين : إن عليها — بمجرد أن تتلقى رسالتها — أن تخلع ثوبها وترقد فى فراشها ، وقد أغلقت المصاريع الخشبية للنوافذ ، ووضعت منديلا مبللا بماء الكولونيا على جبينها ، وعندما تأتى ماما تتكلم بصوت منخفض متقطع . كأنها تجد عناء فى التلفظ بالكلمات .

وأجابتها كارولين :

— لن أستطيع أداء ذلك بشكل مقنع ...

ولكن إلفا لم تصغ إليها .

وأرادت إلفا أن تتأكد من أن بن فهم تعليماتها ، فأعادتها عليه ، ثم قالت :

— وبعد أن تبلغ رسالتى إلى إميلى عد من نفس الطريق الذى حضرنا منه ، وإذا وجدتنى سلكت طريقاً آخر قف عند حافة البستان وانتظرنى هناك .

ورأت الحيرة على وجه بن فأعادت تعليماتها للمرة الثانية ثم قالت :

ــ لا بد أن تنتظرنى لأننا يجب أن نعود إلى القصر معاً ، فأنت تعلم أن فخامة والدى لا يسمح لى أن أركب بدون صحبة سائس .

واعتقدت أن هذه الملاحظة الأخيرة ستجعل بن يمتنع عن التلكؤ للثرثرة مع الخدم عند الباب الخلفى ، وطمأنها أنها تعرف بن غير مغرم بالثرثرة ، أما جيم فثرثار كبير .

وراحت إلفا ترقب الطريق عبر ضيعة لنشستر . وأخيراً لمحت حركة عن بعد ، ثم لم يعد هناك شك أن الشبح القادم فيتون يقوده سيد على رأسه قبعة عالية ، والجوادان ينهبان بالفيتون الأرض نهباً ، فالتفتت نحو بن ، وقالت :

ــ ها هو الفيتون قادم ، عد بأسرع ما تستطيع يا «بن» ولا تضيع دقيقة واحدة !

وأطاع بن،ولوى عنان حصانه دستر وانطلق عائداً بكل سرعة، وركبت إلفا فى الاتجاه المضاد على امتداد الطريق .

وعلى مسافة نحو ميل توجد غابة ، ووقفت إلفا بجوادها وسط الطريق المترب ، تنتظر بهدوء ظاهرى ، ولكن قلبها كان يخفق بقلق داخل صدرها ، وجفت شفتاها .

لنفرض أنها فشلت ؟ ولنفرض أن الدوق لم يصغ إلى شىء من خطتها ؟ فى هذه الحالة يتحطم قلب كارولين ، ويتعين مهما كانت العواقب أن تهرب مع إدوارد :

وبسبب عصبيتها خيل إليها أنها قضت فى هذا الانتظار وقتاً لا نهاية له ، وبدأت تخشى أن يكون الدوق قد عدل عن رأيه وعاد أدراجه .

ثم أخيراً رأت الفيتون قادماً على الطريق نحوها ، وتبينت أن الجوادين اللذين يقودهما الدوق أفضل من أى حصان من ممتلكات والدها . أما الفيتون نفسه فأنيق جداً ، ومن طراز جديد لم تره فى الكونتية حتى الآن .

وفى البداية، عندما رأى امرأة فى وسط الطريق أمامه،لم يحاول الدوق جذب أعنته ، فقد توقع منها أن تنتحى جانباً لكى تدعه يمر ، ولكنه لما تحقق أنها لا تنوى هذا أوقف جواديه .

ولم تتحرك هى،وبعد برهة انتظار ركبت إلى أن حاذت فيتونه، وقالت :

ــ طاب يومك يا صاحب الفخامة !

فرفع الدوق قبعته العالية وقال :

ــ طاب يومك ! لا أظن أنه سبق لنا أن التقينا .

ــ لا . ولكنى أريد التحدث مع فخامتك فى أمر هام جداً .

فرفع الدوق حاجبيه قبل أن يجيب :

ــ أنا فى الواقع فى عجلة من أمرى بعض الشىء . ألا يمكن أن نتفق على موعد للقاء فى وقت آخر أنسب من هذا ؟

ــ هذا الوقت بالذات يناسبنى جداً يا صاحب الفخامة ،



ثم أخيرًا رأت الفيتون قادمًا على الطريق نحوها ، وتبينت أن الجوادين اللذين يقودهما الدوق أفضل من أى حصان من ممتلكات والدها ..

والموضوع الذى لابد أن أناقشه معك ليس هاماً جداً فحسب ، بل هو عاجل جداً أيضاً !

– إذن فأنا مستعد أن أصغى لما تريدين قوله .

– شكراً لك ! ولكن بما أنه موضوع سرى جداً ، لذا أتمنى ألا أثقل على فخامتك كثيراً ، إذ أطلب إليك السير معى إلى طرف الغابة.

فنظر إليها الدوق فى دهشة شديدة ، وفزعت إلفا لأنها حسبته سيرفض ، ولكنه لم يلبث أن قال :

– وهو كذلك . ولكنى أرجو ألا تكون هذه مزحة ، أو أن ينقض على نفر من قطاع الطرق ويحتجزوننى مقابل المبلغ الهزيل الذى أحمله فى جيبى .

– أستطيع أن أعد فخامتك أن شيئاً من هذا لن يحدث !

– وهو كذلك !

واستدار الدوق برأسه ، ولكنه لم يكن بحاجة إلى إعطاء الأمر للسائس الذى كان جاثماً فى المقعد الخلفى . فقفز تلقائياً إلى رأسى الجوادين ، وما إن ثبت الدوق الأعنة أمامه ، حتى كان الجوادان قد تمت السيطرة عليهما .

ووثب الدوق بخفة إلى الأرض ، بينما كانت إلفا قد ترجلت ، فسألها :

– وماذا عن حصانك ؟

– سوالو سيتبعنى .

وتقدمت الدوق إلى وراء الفيتون، ودخلت الحقل الذى بجانب الغابة :

وبعد خطوات قليلة كانا قد صارا تحت الأشجار، ورأت على الأرض عدداً من جذوع الأشجار المقطوعة فى انتظار نقلها إلى الطريق، فجلست على جذع منها، وحذا الدوق حذوها بنشاط . ثم قال :

– والآن . ما الموضوع بالضبط ؟ وأقترح أولا أن تبدئى بتقديم نفسك . لأنى أدركت أنك تعرفين من أنا ...

– نعم يا صاحب الفخـامة : اسمى مارى مرجريت ألكسـندرا إلفا آلرتون !

فاهتزت شفتا الدوق، ولكن قبل أن ينطق استطردت إلفا :

– ولكن الجميع ينادوننى إلفا، أى الجنية الصغيرة، لأسباب واضحة !

فنظر إليها الدوق وهو يتذكر أن منظرها كان يبدو غير مألوف منذ تكلمت، ولا تشبه أى فتاة أو امرأة رآها من قبل، وتأكد لديه الآن أن سبب هـذه التسمية أن فيها شبهاً من صغار الجن المذكورة فى الأساطير لجمالهـا وصغر حجمها ورشاقتها، وإن لم يكن باستطاعته إدراك ذلك لو لم تذكر له اسمها الغريب .

فعيناها الواسعتان جداً فى وجهها الصغير المدبب كانتا مائلتين إلى أعلى عند الركنين، فأشبهت فى مخيلة الدوق صور الجنيـات التى كان يراها فى الكتب وهو طفل .

والعجيب أن فمها الجميل كان أيضاً مرفوعاً إلى أعلى عند الركنين، وعندما تبتسم ترتسم على خديها غمازتان عميقتان .

وتطلعت إلى الدوق وقالت كأنها خمنت أسئلته :

– عندما ولدت اعتقد والدى أنى « مبدولة » . ولأن الجميع كانوا يقولون : إنى أشبه بجنية (إلف) صغيرة، أضافت جـدتى – وكانت معروفة بحب الدعابة – اسم إلفا وهى تقدمنى إلى الكاهن عند حوض العماد . واستشاط والدى غضباً لذلك، ولكن الأمر كان قد خرج من يده .

وقال الدوق :

– لا يسعنى إلا أن أقول : إنه اسم مناسب جداً !

وابتسمت إلفا وخلعت قبعة ركوبها وقالت :

– لا لزوم للقبعة، ولكنى لبستهـا لأترك فى نفسك انطباعاً باحترامى !

وتطلع إلى شعرها ووجـده مختلفاً عن المـألوف مثل وجهها . كان أقرب للون ورق شجر الزان، إلا أنه مشوب بلون الذهب، وبرز سطوع لونه كشعاع الشمس وسط خضرة الأشجار .

وبدت إلفا بدون القبعة أقرب إلى الجنيات منها إلى البشر، وكانت نحيلة جداً بحيث يصعب على المرء أن يحس أنها امرأة وأصابعها – التى أخـذت تعريهـا الآن من قفـاز الركوب – طويلة رفيعـة، وناصعة البياض :

وقال الدوق بصوت عال :

– وبعد يا ليدى إلفا ، ها نحن قد أثبتنا هويتينا ، فهل لك أن تذكرى ما هو الموضوع السرى الهام الذى تريدين الإفضاء به إلى ؟

وجلست إلفا ساكنة الأوصال تماماً ويداها فى حجرها ، ونظرت إلى الدوق فرأى فى عينيها بريقاً يضاهى وهج شعرها الذهبى ، وفى الوقت نفسه لاحظ أنها تنظر إليه وكأنها تزنه بعينيها وتقيمه، وتبحث تحت مظهره عن شىء ما ، وإن كان لا يدرى ما هو .

والواقع أنها فضلا عن خوفها مما ستقوله للدوق ، كانت تفكر أنه أجمل صورة مما كان يبدو لها عن بعد .

وفى الوقت نفسه أحست أن فيه شيئاً ما ينبى عن السلطة المخيفة ، أجل كانت تتوقع أن يكون مهيباً، ولكن ليس إلى هذا الحد المسيطر الشامخ ، بل الطاغى . وتوقعت منه أن يكون صعب المراس عنيداً .

وعاد الدوق يسألها وفى صوته هذه المرة نبرة نفاد صبر :

– ماذا تريدين قوله ؟

– المسألة ببساطة يا صاحب الفخامة أنى أعرف أنك فى طريقك إلى طلب يد أختى للزواج ، ولكن هل لك أن تتفضل بدلا من هذا بالزواج منى أنا ؟!

ولم يبد على وجهه أنه دهش أو أجفل،وكل ما هناك أنها لمحت فى عينيه نظرة عدم تصديق ، ثم أطبق شفتيه بقسوة قبل أن يقول :

– أهذا مزاح ؟

– بالطبع لا . إنه طلب جاد جداً ، وصرخة استغاثة فى الوقت نفسه !

– ماذا تقصدين بالضبط ؟

– شقيقتى كارولين ،التى يريد والدى تزويجها لك تحب شخصاً آخر حباً عميقاً جداً ، وكان فى مأمولها أن يتزوجا فى مدى سنة . ولكن والدى فاجأها اليوم بأنها يجب أن تصير دوقة . ولو أجبرت على هذا لتحطم قلبها .

وبدا على الدوق أن ما يسمعه لايمكن أن يكون صحيحاً. وأدركت إلفا أن الدوق حينما اتفق مع والدها لم يخطر بباله لحظة واحدة أن كارولين لن تكون سعيدة بفكرة الزواج منه . وخطر لها أن الدوق بعد أن ظل طول عمره تطارده الجميلات – على حد رواية أبيها عنه – صدمته فكرة أن هناك فتاة واحدة على كل حال لا ترغب فى الزواج منه .

ولم يتكلم الدوق ، وبعد لحظة قالت إلفا :

– قد يدهشك يا صاحب الفخامة أن توجد فتاة لا تريدك زوجاً لها ، ولكن الحب أهم عندها من أن تصير دوقة ، والحقيقة أنها تفضل الجوع مع إدوارد على حياة البذخ والرفاهية معك !

وأخيراً استطاع الدوق أن ينطق :

– الحقيقة أنى اعتقدت أن اقتراح والدك لاقى من قبل الرضا والقبول من ابنته .

فأطلقت إلفا ضحكة صغيرة ، وقالت :

ـ أتظن أن كارولين أخذ رأيها فى الزواج منك ؟ أبداً ، كل ما هناك أن والدى أبلغها بقراره هذا ، وكنت لحسن الحظ قد حذرتها سلفاً بمـا سيقوله لهـا ، لأنى سمعته يحكى لوالدتى كيف أنهى العداء والخصومة بين أسرتينا .

ـ اقتراح أبيك كان عملياً ومعقولا جداً .

فابتسمت إلفا قبل أن تقول :

ـ ومن دواعى ارتياحنا جميعاً أن نتخلص من هذا المنولوج الذى لا حديث لأبى على مائدة الطعام سوى عن « ماجنوس كروفت »، يوماً فى إثر يوم ، وسنة فى إثر سنة ! ولكنك لن تسترد ماجنوس كروفت إلا إذا تزوجتنى بدلا من كارولين .

ـ وهل أنت متلهفة جداً على أن تصيرى زوجتى ؟

ـ كلا بالطبع ! وإن لم أكن على علاقة حب بأى شخص آخر ، ولكن كل ما هناك أنه لا بد من تضحية ، ومن الأفضل أن أكون أنا الضحية لا كارولين !

وأدركت من تعبير وجهه أن كلامها كانت فيه (جليطة)، فأردفت بسرعة :

ـ آسفة جـداً ، لم أقصد الإسـاءة ، ولكن ما من فتـاة تطير فرحاً عندما يقال لها إنها يجب أن تتزوج رجلا لم تتحدث إليه من قبل .

ـ أعترف أنى قليل الخبرة بالفتيات الصغيرات ، لذا لم أكن

أتوقع أن تكون لديهن مشاعر عميقة عن الزواج ، وكنت أعتقد أن آباءهن أدرى بمصلحتهن !

ـ لقد كنت صغير السن يوماً ما ، ولابد أنك تتذكر أنه كانت لك آراء واضحة محددة عن الحياة والناس وعن نفسك ، كذلك الفتيات ، إلا أنهن أكثر مثالية من الفتيان !

ـ ولكن مثاليتك لم تمنعك من إبداء الاستعداد للزواج منى فى ظروف أبعد ما تكون عن المثالية !

ـ لقد فكرت فى الأمر بعناية شديدة ، فلم أجد بديلا لهذا الحل ، فإن تزوجت كارولين ستشقى أشد الشقاء ، وتشقيك أيضاً أشد الشقاء ، وإما ...

ـ وإمـا ... !

ـ وإما أن أعرض عليك نفسى بدلا منها !

ـ آه . أحسبك تخالين نفسك شاة تساق إلى الذبح !

ـ لا . بل أعتقد أنك لن تكون الخاسر بهذا التبديل !

ـ ماذا تعنين بهذا ؟

ـ فى حين تظـل كارولين تبكى معك وتتوق إلى إدوارد ، سأحاول أنا أن أكون زوجة مريحة .. وإن كنت لا أضمن أن أكون زوجة على قدر عال من الكفاءة ... وعلى حد قول والدى : الحب يأتى بعد الزواج ، وإن كان من الممكن أن يكون هذا الحب لامرأة أخرى غير الزوجة .. فليس فى الأمر مشكلة بالنسبة لنا !

— لا يمكن أن أصدق أن والدك قال لك شيئاً كهذا .

— بل قاله لوالدتى ، ولم يكن يدرى أنى أسمعه !

— إذن أنت كنت تسترقين السمع !

— أجل : وبهذه الطريقة عرفت باتفاقك مع والدى حول ماجنوس كروفت !

— ولكن استراق السمع ليس من صفات السيدات الراقيات :

فابتسمت إلفا ولمعت غمازتها على خديها وقالت :

— السيدات لسن دائماً مطالبات بأن يكن مهذبات كالسادة المحترمين ، ولاسيما أن الجنيات معفيات من قانون الشرف هذا !

— أشكرك لأنك حذرتنى من طباع الجنيات ! ولكنى على العموم أحس بأنى مقدم على ارتكاب خطأ جسيم ، إلا أنى لا أدرى يا ليدى إلفا كيف يمكننى أن أرفض طلبك هذا !

فأطلقت إلفا صيحة سعادة وصفقت بيديها :

— أتوافق فعلا ؟

— لأن البديل الوحيد أن أعود أدراجى !

— آه ! وفى هذه الحالة يحتفظ والدى بماجنوس كروفت !

— بالضبط !

وألقى برأسه إلى الوراء وقهقه ضاحكاً . وضحكت إلفا أيضاً . وسألها فجأة :

— كم عمرك ؟

— ١٨ سنة .

فنظر إليها غير مصدق ، فقالت :

— لم أغشك إلا فى شهر واحد . سأتم الثامنة عشرة فى شهر يونيو .

— إنك صغيرة السن جداً ...

— لماذا ؟ كارولين فى العشرين ، ولكنى أشعر دائماً أننى الأكبر منها ، ويجب علىّ أن أرعاها وأحميها ، فليس العمر بالسنين ، بل بالذكاء !

— وهل تظنين ذكاءك متقدماً جداً فى السن ؟

— أرجو هذا . ثم إن الجنيات لا عمر لهن ، ويعشن إلى الأبد !

فومضت عينا الدوق وقال بسخرية :

— هذه فكرة بارعة !

وتناولت إلفا قبعتها التى كانت ملقاة على العشب ، وقالت :

— أظن أنك إن كنت حقاً قررت عدم التقدم لكارولين ، فلابد أن تمضى الآن إلى قصر تاورز : وستجد ماما جالسة فى حجرة الاستقبال تنتظر قدومك وهى تتحسر على كل دقيقة تبعدها عن الحديقة والأزهار.

— هل أفهم من هذا أنك تصدرين لى التعليمات ؟

— قد يبدو هذا وقاحة منى ، ولكن لقاءنا هنا يجب أن يظل سراً لاتفشيه لأى إنسان ، وأخشى أن يرانا أحد ويخبر أبى فيغضب جداً لأنك سوف لا تتزوج كارولين .

— لماذا ؟

— لأنها المفضلة عنده ، ولا مانع أن أقول لك الآن بعد أن فهمت حقيقة الموقف : أنها جميلة جداً جداً ...

– بلغنى هذا من قبل :

– الحقيقة إنها ذات شكل نموذجى لدوقة ، وسوف يخيب أملك فى ، ولكن لاحيلة لى فى هذا .

– لعل الأفضل إذن أن أتمسك بخطتى الأصلية .

– فى هذه الحالة سأدبر مبلغاً كافياً كى تهرب كارولين مع إدوارد ، وفى هذه الحالة ستثور فضيحة كبرى ، وسيسىء هذا إليك بعد إعلان خطبتكما ، لأن الكل سيعرفون أنها فضلت شاباً مفلساً على الدوق النبيل الممتاز !

– آه ! إذن أنت تبتزيننى . لم أعد أصدق أنك جنية ، بل شيطان يصر على استثارتى وأن يتحدانى !

فضحكت إلفا وقالت :

– لعلك تفكر فى ذلك النوع من العفاريت التى تعيش تحت الأرض وأعمالهم شريرة !

– أنا أعرف شيئاً عن هؤلاء العفاريت ، ولكنك لاتشبهينهم !

– وأنا أعرف أنك ستصاب بخيبة أمل بزواجك منى بعد كل النساء الحسناوات اللواتى أحببتهن ، وسيصدمك أن تجد الدوقة الجالسة على طرف مائدتك الآخر لاترقى إلى مستوى بهاء مجوهرات آل لنشستر . ولكن لاحيلة لى فى شكلى !

فقال الدوق بلا اكتراث :

– أعتقد أننى سأعتاد شكلك بمرور الوقت !

ونهض من جلسته على جذع الشجرة ، وقال :

– أظن الليدى كارولين تعرف أننى سوف لا أتقدم لها عند وصولى ؟ ...

– لن تراها ، وبذلك يتاح لك عندما تقابل بابا وماما أن تقول إنك تفضل الاقتران بى !

– وما داما لايعرفان أننا تقابلنا ، سيدهشهما ذلك بلا شك . أليس كذلك ؟

– يمكنك أن تقول إنك رأيتنى أثناء العيد ، فأنا شخصياً رأيتك عدة مرات ووجدتك تبدو فى غاية الأبهة والوسامة !

– أشكرك !

– أنت فارس ممتاز ، وعندك أفضل الجياد فى الكونتية كلها .

– أراك رتبت أمر زواجك بى لمصلحتك تماماً ...

– ولمصلحة إدوارد وكارولين ، أى لإسعاد أكبر عدد ممكن .

– ولكنى مهتم بما يخصنى شخصياً .

– يكفى أن تتذكر كلما ساورك الندم أنك ستحصل معى على ماجنوس كروفت !

وابتسمت له إلفا وتناولت قفازها وقبعتها بيدها وسارت إلى حافة الغابة حيث وجدت سوالو يرعى العشب . فصفرت له وجاء مسرعاً إليهـا :

وتقدم الدوق كى يساعدها على الركوب ، ولكنها كانت أسرع

منه بالوثوب إلى صهوة جوادها وكأنها تطير بجناحين غير منظورين .
ونظرت إليه باسمة فظهرت غمازتاها ، وسرعان ما اختفت عن الأنظار ، وركب الدوق الفيتون وتناول الأعنة بيديه مسرعاً صوب قصر تاورز ، وهو يفكر فيما سمعه ولا يكاد يصدق ماحدث .

* * *

وركبت إلفا بأقصى سرعة عبر الحقول ، ولما وصلت إلى حافة البستان وجدت بن هناك فى انتظارها . وسألته :

– هل بلغت رسالتى إلى إميلى ؟

– نعم ياسعادة الليدى !

ولم تكن بحاجة لتوجيه مزيد من الأسئلة ، واخترقت بسرعة على صهوة جوادها البستان الكبير إلى فناء الإسطبلات . وتحدثت إلى جارستن حديثاً عابراً وهو يقود سوالو إلى معلفه ، ثم دخلت القصر من باب جانبى وصعدت السلم إلى الطابق الثانى .

ونظرت حولها بقلق قبل أن تصل إلى رأس السلم ، ولم تدهش عندما رأت إحدى الخادمات خارجة من حجرة كارولين ، فسألتها :

– ما الخبر يا دوروثى ؟

– لست أدرى ماذا ستقول صاحبة الفخامة الدوقة ، فهذه هى المرة الثانية التى أصعد فيها إلى حجرة سعادة الليدى كارولين لأبلغها أنها مطلوبة بسرعة فى حجرة الجلوس ، ولكنها قالت للمرة الثانية إنها مصابة بصداع .

– هل ساءت حالتها ؟ أنا فى غاية الأسف !

– من كلامها يتضح أن الصداع شديد ، ولكن صاحبة الفخامة مصرة على نزولها إلى حجرة الاستقبال .

– قولى لصاحبة الفخامة إن الليدى كارولين ستنزل بمجرد تحسن حالتها ، وسأنظر ماذا يمكننى أن أصنع .

وجرت إلفا فى الدهليز وفتحت باب حجرة نوم كارولين وقالت لها بسرعة :

– كل شىء على مايرام . لقد وافق !

فجلست كارولين فى فراشها وقالت بصوت لاهث :

– وافق ؟ .. آه يا إلفا ... لقد كنت مرتاعة جداً ...

وبدأت الدموع تنساب على وجنتيها ، فقالت إلفا :

– أعرف هذا ياحبيبتى ! ولكن لابد لك الآن من مواصلة التمثيل ، فأنت تعرفين أنه متى وصل ، فسوف يبعث بابا بماما إلى هنا لتحضرك .

فمدت كارولين يديها لتتناول يد أختها ، وقالت :

– أمتأكدة أنت ؟ أمتأكدة أنت فعلا من أنه لن ... يغير رأيه ؟

– لقد أنذرته بأنه إن غير رأيه واتفاقه معى ، سأدبر المال اللازم لكى تهربى مع إدوارد ، وأن ذلك سيجعله أضحوكة المجتمع الراقى !

فارتاعت كارولين وقالت :

– لا يمكن أن تكونى قلت شيئاً كهذا للدوق !

— بل قلته ! وأنا واثقة الآن أنه سيفى بوعده لى ويقول إنه سيتزوجنى ! وستكونين أنت سعيدة جداً مع إدوارد .

— إلى أقصى حد !

وصرخت إلفا فى أختها :

— ما هذا ؟ وجهك غدا مشرقاً ! أستحلفك بالله يا كارولين أن تتصنعى المرض ، وإلا « فقس » بابا وماما الحيلة !

فألقت كارولين رأسها على الوسادة وابتسمت . وصاحت إلفا :

— انتظرى لحظة ! عندى فكرة !

وجرت خارجة من الحجرة إلى حجرة الجلوس التى كانت فيما مضى حجرة الدراسة ، واتجهت إلى المنضدة التى كانتا تستخدمانها لعمل الواجبات والاستذكار ، وكانت لاتزال قائمة فى وسط الحجرة ، ورفعت المفرش المخملى وفتحت درجاً وأخرجت القلم الرصاص ، ثم عادت إلى حجرة كارولين وقالت :

— سأضع لك خطوطاً سوداء تحت عينيك ليظهر عليك المرض ، وأستحلفك بالله العظيم ألا تبتسمى .

— بل أريد أن أرقص وأغنى ... وأرى إدوارد .

— أعرف هذا ، ولكن يجب أن نتأكد أولا من أنه ستكون لدينا أخبار طيبة كى تبلغها له عندما تقابلينه !

واستسلمت كارولين على الفور وقالت :

— طبعاً . طبعاً : وسأصلى إلى الله بكل حرارة أن يصح تدبيرك .

— نعم . تفرغى للتضرع ، على الأقل إلى أن ينصرف الدوق . والآن أغمضى عينيك !

وأطاعتها كارولين ، وسودت إلفا سبابتها بالقلم الرصاص ، ثم وضعت السواد تحت عينى كارولين ، وعلى جفنيها .

— احذرى أن تدعكى عينيك بالمنديل ، واستعدى لوضع منديل مبلل بماء الكولونيا على جبينك متى سمعت وقع أقدام ماما صاعدة السلم .

— وماذا ستصنعين أنت ؟

— سأذهب لارتداء أبهى فساتينى وأستعد للنزول لتقبل عرض الزواج من صاحب الفخامة دوق لنشستر !... فالمسكين ليس أمامه بديل لطلب يدى كى أكون دوقته وإلا خسر إلى الأبد ماجنوس كروفت !

وأغلقت باب حجرة كارولين وجرت عبر الدهليز إلى حجرتها .

وبينما هى تخلع رداء ركوب الخيل وتلقيه على مقعد راحت تفكر فى نفسها ، وتبينت أنها لكى تنقذ كارولين تعين عليها أن تتزوج رجلا ليس رهيباً فحسب ، بل سيكون بلا ريب صعب القياد جداً فى سائر الظروف ...

أجل ، لقد سيطرت عليه هذه المرة ، ولكن ليس من المحتمل أن تتمكن من ذلك فى أى فرصة أخرى .

واكتأبت لهذه الفكرة ، فاتجهت إلى النافذة لتطل منها ، وكانت

الحديقة من تحتها ، ومن ورائها مشتل ، ثم غابات الصنوبر . ولقـد كان دأبها كلما حزبها أمر أن تفر بخواطرها إلى هذه الغابة .

وتحنو عليها الغابة،وتهدهد أحزانها وتسرى عنها . وعندما تكون هناك تشعر أنها محاطة بمخلوقات جنية على شاكلتها ، وأنه بوسعها أن تتصل بهم .

وهذا شيء لم يكن فى وسعهـا أن تفسره لأى شخص آخر ، إلا أن أسرار الغابة كانت حقيقة واقعية ، ليست جزءاً من أحلامهـا فحسب ، بل هى جزء من صميم حياتها !

وخطر لهـا الآن أن زواجها من للدوق سيحرمها من فرصـة الوقوع فى حب على غرار ما حدث لأختها كارولين .

ولكنهـا على الأقل لن تحرم حبهـا الخفى الغـامض للغـابة ، ولن يستطيع أحد ، حتى ولا الرجل الذى سيصير زوجها ، أن يحرمهـا من هـذا .

وعزمت على أنها بمجرد انصراف الدوق ستذهب بمفردها إلى الغابة لتتأكد من أن شيئاً فى حياتها لم يتغير ، وأن أخواتها الجنيـات سيكن فى انتظارها بالغابة .

* * *

الفصل الثالث

كان الدوق يعلم وهو منطلق بفيتونه إلى قصر آلرتون تاورز أنه لو كان فى تمـام رشده لاستدار بجواديه وعاد إلى قصره .

كان متضايقاً لأنه لم يخطر له من قبل أن أى امرأة شـابة يمكن ألا تطير فرحاً لأنها ستصبح زوجته ، وها هو قد عرف الآن بعـد حديثه مع إلفا أن إدراكه كان ناقصاً لهذا الواقع ، وعلى كره منـه جداً اعترف بأنه كان بليد الحس والذهن على نحو ما ، فهو لم يختلط حتى الآن — وعلى مـدى سـنوات طـويلة — إلا بنسـاء محنكات متزوجات كن يتملقنه ، ويطاردنه ، ويظهرن له بجلاء شـديد جداً أن طموحهن الوحيد فى الحياة منحصر فى أمر واحد ، ألا وهو أن يمسين عشيقاته ، حتى أنه نسى أو تناسى أن النساء الأخريات يمكن أن يكون شعورهن نحوه مختلفاً تمـاماً .

فهو — كما ذكر تمـاماً لإلفا — لم يكن يعتقد أن أى فتـاة يمكن أن يكون لديهـا أى شـعور عميق بالحيـاة ، فلما اقترح عليـه اللورد نورثالرتون أن يتزوج ابنته ، لم يخطر بذهنه مطلقاً أن هـذه الابنـة يمكن أن يكون لها أى رأى مخالف فى هذا الموضوع . وقال فى نفسـه :

— سأطرح من رأسى كل تفكير فى هذا الموضوع ! وأنسى فكرة الزواج من أى أحد لبضع سنين .

إلا أنه كان يعلم أن هذا ليس سهلا كما يبدو له ، بل إنه تفكير

غير عملى . فرفضه الذهاب الآن لزيارة قصر آلرتون تاورز معنـــاه إهانة ذلك الدوق إهانة يستحيل عليه التسامح فيها أو غفرانها ، فتتأجج الخصـــومة من جديد حول « ماجنوس كروفت » بأفدنتها العشرة الآلاف ! وكانت العداوة بين « الدائرتين » قد بلغت أوجها ، وسببت جفوة بين مستخدميهما بصورة ليست فى مصلحة الكونتية .

وكان يعلم أن حراس صيده كانوا يشتاطون غضباً فى كل مرة يقدم فيها الدوق نورثالرتون ومدعووه على الصيد فى ماجنـــوس كروفت ، وكان اعتقاده دائماً أن المثل الذى يضربه الدوقان فى هذه الخصومة ليس من المصلحة أن يحتذيه خدمهما وموظفوهما :

وفى الوقت نفسه كان مدركاً تمام الإدراك أنه لا ينبغى أن يتورط فى علاقة زواج تنذر فى مستهلها بالصعوبات والتعثر .

وكان الكثير مما قالته إلفا له قد أقنعه وصدمه فى الوقت نفسه .

وكلما اقترب من قصر تاورز ازداد شعوره بالإحجام عن بلوغ غايته .

وقال لنفسه :

ــ المسألة كلها فى غاية السخافة ! ولكن الرجوع من حيث أتيت سيجعل الأمور أشد تعقيداً مما هى فعلا .

وأخيراً ، عندما وقف جواداه أمام الباب الأمامى ذى الأعمـدة أحس كأنه مساق إلى منصة الإعدام .

ولم يجد مناصاً من النزول وقد رأى الدوق نورثالرتون واقفاً فى انتظاره أمام الباب الكبير ، وهو يقول له بكل مودة :

ــ أهلا بك يا عزيزى لنشستر ! ما أجمل أن نراك هنا بعد كل هذه السنين التى كان بيت كل منا مقفلا فى وجه الآخر !

وتصافح الدوقان ودخلا إلى قاعة الاستقبال ، حيث كانت الدوقة فى الانتظار

ولم يعرف الدوق لنشستر أنه كانت هناك مشاحنة عائلية كبيرة قبل وصوله ، فالدوق نورثالرتون عاد للقصر كما قال فى الســاعة الثالثة تمـاماً ليجد زوجته بمفردها فى قاعة الاستقبال ، فسأل بحدة :

ــ أين كارولين ؟

فأجابته الدوقة :

ــ لقد بعثت إلى الطابق العلوى من يذكرها بالموعد .

وكانت تتكلم بغموض لأنها كانت مشغولة الذهن بالتفكير فى كمية النباتات التى اضطرت لتركها فى الحديقة وكان لابد من غرسها قبل هطول المطر :

وكان كبير البستانية المسن لا يخطئ فى التنبؤ بالجو ، وكان قـد قال بوجوم فى هذا الصباح :

ــ لا بد لفخامتك من الإسراع ، فالمطر فى الطريق ، أشعر بهذا فى عظامى ، والمـاء أكثر من اللازم قد يضر كما يضر العطش تماماً .

ووافقته الدوقة ، ولكن برغم اجتهـادها فى الغـــرس ــ وهى لا تأمن لأى أحـد إطلاقاً أن يغرس نباتاتهـا الثمينة ــ لم تفلح إلا فى غرس ربع ما أحضروه لهـا من الصوبات .

كانت أفكارها شاردة فى أحواض الأزهار عندما فطنت إلى أن زوجها يزرع القاعة جيئة وذهاباً كالأسد الحبيس فى قفص .فقالت :

ــ لا تنفعل هكذا يا آرثر . كارولين تحافظ دائماً على المواعيد بدقة ، ولن تلبث طويلا حتى تنزل .

فصاح الدوق بغضب :

ــ تحافظ على المواعيد ؟ الساعة الآن تجاوزت الثالثة بعشر دقائق ! وأنا عندما أقول الساعة الثالثة يا إليزابث فأنا أعنى الثالثة بالضبط !

ــ طبعاً يا آرثر .

وخرج الدوق من قاعة الانتظار إلى البهو وخاطب أقرب خادم قائلا :

ــ أرسل خادمة إلى حجرة نوم الليدى كارولين وأخبرها أننى فى انتظارها هنا .

وبينما هو يتكلم رأى إحدى الخادمات نازلة فى منتصف السلم ، وأحس أنها تحمل رسالة ما ، فسألها :

ــ ما المسألة ؟ أين الليدى كارولين ؟

فانحنت الخادمة وقالت :

ــ سعادة الليدى آسفة يا صاحب الفخامة ، فقد أصابها صداع

وهدر الدوق قائلا :

ــ صداع ؟ ماذا تعنين بالصداع ؟ اصعدى إليها وقولى لها :

إنه سواء كان لديها صداع أو لم يكن لديها صداع ، عليها أن تنزل فوراً ... !

ودارت الخادمة على عقبيها لتنفذ هذا الأمر ، وعاد الدوق إلى قاعة الاستقبال ، وقال للدوقة بصوت عدوانى ، كأنما الخطأ خطأ الدوقة :

ــ كارولين تقول إنها مصابة بصداع :

ــ وكانت تقول إنها تعانى منه على مائدة الغداء كما لعلك تذكر :

ــ إنها مسألة أعصاب لا أكثر : مجرد أعصاب ! وهكذا النساء دائماً ، تثور أعصابهن إذا طلب أحد إليهن عمل أى شىء خارق للمعتاد :

ــ أظن أن كارولين أحسنت التصرف يا آرثر : فهى بعد كل شىء لم تحتج عندما قلت لها إنها يجب أن تتزوج الدوق ، مع أنها تحب إدوارد :

فزمجر الدوق ، كمن لا يريد أن يسمع نفس الحجة مرة أخرى ، وخرج إلى البهو ، وكان عليه أن ينتظر هناك بضع دقائق قبل أن يقال له ، إن الليدى إلفا قالت إنها ستتولى هذا الموضوع وتبذل فيه جهدها ... ولكن لم يظهر أثر لابنته الكبرى :

وما دانت الساعة الثالثة والنصف حتى كان الدوق فى حالة هياج ، وقال لزوجته :

ــ اصعدى وكلمى هذه البنت الملعونة ! .. إنها ابنتك بعد كل شىء .. !

فأجابته الدوقة برخاوة :

– وابنتك أنت أيضاً يا آرثر .

فصاح الدوق :

– وهو كذلك ! سأذهب إليها بنفسى !

وصعد السلم العالى إلى الطابق الثانى ، وسمعته إلفا قادماً فقالت لأختها :

– إنه بابا . قومى الآن بدورك يا كارولين . وتذكرى أنك تصنعين هذا من أجل إدوارد .

فتمتمت كارولين فى رعب :

– بابا .... يا للمصيبة !

ولكن إلفا كانت قد انسلت عائدة إلى حجرة نومها الخاصة .

وكان الدوق قد تعب من صعود السلم ، فتحرك ببطء وبخطوات ثقيلة ، وطرق باب كارولين بغير اكتراث وفتح الباب فى الوقت نفسه ، وشرع يقول :

– قلت لك أن تنزلى !

وعندئذ رأى ابنته راقدة على الفراش ومنديل على جبينها وليس عليها إلا ملابسها الداخلية . فقال متعجباً :

– أنت غير مرتدية ثوبك !

– أنا ... مريضة ... يا بابا .

وكان صوتها ضعيفاً لا يكاد يسمع ، ولأنها كانت فى غاية

الرعب ماتت الكلمات فى حلقها .. وبدت كالمشرفة على الإغماء ، فبرغم الحب المتبادل بينها وبين أبيها كانت دائماً تجده جباراً عندما يتحول إلى دكتاتور .

وكانت تعرف أيضاً أن إرادته إذا خالفها أحد صب العذاب على كل أفراد البيت . واقترب الدوق من الفراش وسألها :

– ماذا بك ؟ يا له من وقت مناسب لانهيار الأعصاب .

وكان يتوقع منها رداً بالفعل . وبعد فترة لم تجسر فيها كارولين على فتح فمها أو عينيها ، قالت بإعياء :

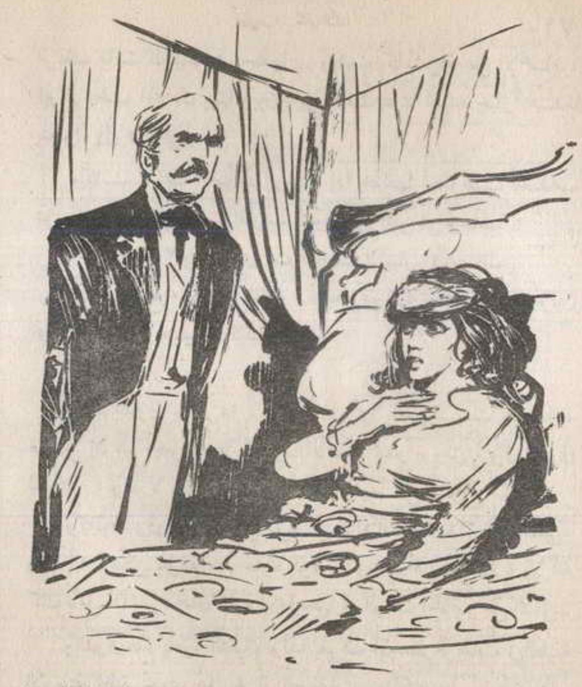
– إنه ... رأسى ... يا بابا .

وكاد الدوق يزجرها ، لولا أنه رأى السواد تحت عينيها ، فخشى إن هو أجبرها على النزول الآن ألا تبدو برونق يروق الدوق لنشستر ، وقد لا يكون فى هذه الحالة متلهفاً على الزواج منها .

وكان الدوق يعرف كل شىء عن غراميات جاره التى لا تحصى ، ومع أنه لم يكن يتوقع من جاره الوفاء لأى امرأة يتزوجها ، إلا أنه كان يأمل أن يبهره جمال كارولين فيحبها فى الوقت الحاضر على الأقل .

والدوق عليم بأمور الدنيا ، ولذا يعرف أن معظم الزيجات فى الطبقة الأرستقراطية تجرى على غرار الصفقات ، ولكنه يعلم أيضاً أن هذه الصفقات أدعى للنجاح حين يصاحبها نوع من الميل والتجاذب الشخصى .

ولأنه كان شديد الإعجاب بابنته الكبرى ، لذا لم يكن يتصور أنه من الممكن لأى شاب ألا يخلب جمالها الأخاذ لبه . وخطر له



ماتت الكلمات فى حلقها .. وبدت كالمشرفة على الإغماء ، فبرغم الحب المتبادل بينها وبين أبيها كانت دائمًا تجده جبارًا عندما يتحول إلى دكتاتورًا ..

أنه لن يضير لنشستر أن ينتظر بعض الوقت لمقابلة "كارولين ، بل إن هذا الانتظار قد يجعلها أكثر جاذبية له ، فقال بصوت مرتفع :

– أنا لا أتخيل وقتاً أقل من هـذا ملاءمة لانهيارك على هـذه الصورة ؛ ولكنى لا أحب لخطيبك الدوق أن يراك لأول مرة على هذا النحو ، ولذا فسوف أتفق معه على تناول العشاء معنا غداً أو بعد غد على الأكثر . وأتوقع عندما يحين هذا الوقت أن تكونى قد عوفيت ؟

– سأحاول ... بكل ... جهدى ... يا بابا .

– هذا ما أتمناه .

وكانت لهجته الجافة تناقض نظرة الحنو فى عينيـه ؛ ثم خرج مستشيطاً لحبوط ترتيباته الحالية ، وصفق الباب وراءه بعنف .

وسمعته إلفا يهبط السلم ، ولما تأكدت من بعده عن مدى سماع خطواتها ؛ أسرعت تجرى إلى حجرة نوم كارولين . وما إن عرفت ما حدث حتى هتفت بها :

– برافو كارولين ! فتـاة بارعة ! لقـد أقنعت بابا ، والآن سيسير كل شىء وفق الخطة الموضوعة ...

وجلست كارولين فى فراشها ، ورفعت المنديل عن جبينهـا وقالت :

– ولكنه قال إنه سيدعو الدوق للعشاء غداً أو بعد غد ...

فصعدت إلفا زفرة عميقة وقالت :

– قبل أن يحين هذا الموعد سيكون قد طلب يدى .

وأطلقت كارولين صيحة فزع خافتة وقالت :

ــ افرضى يا إلفا أنه لم يفعل ذلك ؟ ماذا نصنع فى هذه الحالة !

ــ ليس أمامنا إلا الأمل فى أن يبر بوعده لى .

* * *

وفى حجرة الجلوس كانت الدوقة ترمق دوق لنشستر بنظـرة تقييم لشخصه ، وكانت هى أيضاً قد رأته من قبل أثناء خروجه للصيد مع أصحابه ، وإن لم تتبادل معه أى حديث ، وتأكد لديها أنه وسيم غاية الوسامة ، وفى نفس الوقت كان يبدو ذا شأن وكبرياء ، تصل فى نظرها إلى حد الغرور .

وكانت قد عرفت من زوجها ومعاشرته إلى أى حد يعتز الدوقات بمنزلتهم ، وما كانت قد سمعته عن الدوق لنشستر لم يكن مستحباً للغاية .

إنها شخصياً أحبت زوجها بعد أن تزوجته ، ولكنها كثيراً ما خطر لها أنها لو كانت تزوجت أحد أعيان الريف العاديين ممن لهم اهتمام بزراعة الحدائق والتفنن فيها ، لكان ذلك أقرب لسعادتها وأمدها بنشوة تختلف تماماً عن الحياة التى أجبرت عليها وهى دوقة .

وقال لها الدوق لنشستر :

ــ كثيراً ما بلغنى الثناء العاطر يا صاحبة الفخامة على حدائقك هنا ، وكيف أنها تنافس فى رونقها حدائق كيو ، وأن الفضل فى هذا راجع كله إلى إلهام فخامتك وذوقك الرفيع وعنايتك الشخصية بها .

فلمعت عينا الدوقة لهذا الثناء ، وانتشت بالسعادة ، ولم تفطن إلى أن هارى شلدون هو الذى حدث الدوق عن حديقتها ، بناء على معلومات تلقاها من والدته التى كانت أيضاً من هواة الحدائق الكبار .

وأجابته الدوقة بكل تهذيب :

ــ وأنا متأكدة أن حدائق قصر شستر هاوس بديعة للغاية .. وكثيراً ما اشتاقت نفسى لرؤيتها ...

ــ هذه مسألة هينة يسهل جداً علاجها فى المستقبل القريب .. ولكنى أخشى ألا تكون فى المستوى الذى أتمناه لها ، والتحسينات والتعديلات ــ كما تعلمين فخامتك ــ تستغرق وقتاً ...

فابتسمت الدوقة وقالت :

ــ هذا ما ألاحظه فعلا ...

وأحست بعد هذا الحديث عن الحدائق أن شعورها نحو الدوق تغير تماماً إلى الأحسن ، لأنها تؤمن أن أى رجل يهوى الحدائق لابد أن يكون زوجاً صالحاً !

ثم لاحظت إلى أن زوجها يختار ألفاظه بحذر شديد ، فنظرت إليه بتوجس ، وسمعته يقول للدوق الزائر :

ــ أخشى أن تكون لدينا أخبار مثبطة لك يا لنشستر ، ذلك أن ابنتى كارولين التى كانت تتطلع بشدة إلى التعرف بك ، داهمها للأسف صداع فظيع منهك ، ولما كان لا يوجد سبب معين لهذا الاعتلال ، فلابد أن المسئول عنه هو حالة الطقس .

فأجابه الدوق الزائر :

– أنا آسف فعلا أن أسمع هـذا الخبر عن ابنتك ، ولـكني فى واقع الأمر لم أحضر اليوم لرؤية الليدى كارولين ، بل الليدى إلفا !

ولو أن قنبلة انفجرت أمام الدوق نورثالرتون والدوقة زوجته ، لما كانت دهشتهما أقل من ذلك . وصاح الزوج :

– إلفا ؟ ولماذا عساك تريد رؤية إلفا ؟

وبنعومة قدر الإمكان أجاب الدوق الزائر :

– لأن الليدى إلفا هى التى أريد أن أتوجه إليها بطلب يدها !

واستغرق الدوق نورثالرتون ثانية أو أكثر كى يجد لسانه ، فقـال :

– لا ! لا ! لقـد أخطأت الفهم ! أنت تريد الزواج من كارولين ، ابنتى الكبرى ...

– ليست عندى أى رغبة فى المناقشة معك يا نورثالرتون ، ولكن اهتمامى كله متجه إلى الليدى إلفا !

فشهقت الدوقة شهقة مسموعة ، وقال زوجها بصوت مرتفع :

– لست أفهم ! عندما بحثنا هـذا الموضـوع عرضت عليك ماجنوس كروفت بائنة لابنتى كارولين ...

فرد الدوق لنشستر بصوت حازم :

– لابد لى من الاعتراض عليك ، إن كل ما قلته لى أن أتزوج ابنتك بدون تحديد للاسم !

– صحيح ! ولكن بكل أمانة كانت كارولين هى التى فى ذهنى ، ولم أفكر إطلاقاً فى إلفا ، فهى لم تكد تغادر المدرسة ، ولم تقـدم بعد إلى البلاط الملكى .

وداعبت ابتسامة صغيرة فم الدوق لنشستر التوت لها شفتاه :

– التقديم إلى البلاط الملكى ليس شرطاً لعقد الزواج أو الاتفاق عليه :

– ولـكن كارولين مناسبة لك من كل وجه ، وستشرف مائدتك وتبرز روعة جواهر لنشستر إلى أقصى حد .

وأدرك الدوق لنشستر الآن لماذا حدثته إلفا عن المجوهرات . والحقيقة أنه فهم شعور الدوق نورثالرتون ، ولكن حسماً للموقف الحرج قال بهدوء وبطء :

– مبلغ علمى أن عواطف الليدى كارولين لها اتجاه آخر ...

ومرة أخرى كان لكلماته وقع القنبلة ، وساد هذه المرة صمت مفاجئ ، وصـار واضحاً أن الدوق والدوقة لا يجدان ما يقولانه . وأخيراً تكلم الدوق نورثالرتون :

– من أخبرك بهذا ؟

ولم يزد الدوق لنشستر على أن هز كتفيه وقال :

– اللغط لا ينقطع فى الإقليم ، والأقاويل – كما تعلم فخامتك – تتناقلها الرياح !

وشعرت الدوقة بأنها ينبغى أن تتدخل ، فقالت بسرعة :

– أنا متأكدة أنه إذا كنت فخامتك تريد حقاً الزواج من إلفا، فإن زوجى سيسره جداً أن يعرب لك عن موافقته .

ونظرت إلى الدوق ، الذى كان ما يزال واقفاً بذهول وقالت :

– أظن يا آرثر أنه يحسن أن ترسل حاجباً ليدعو إلفا للمجىء إلى هنا ، فأنا أعتقد أنها فى مكان ما من القصر :

ومن غير أن يتكلم زوجها استدار بسرعة واتجه نحو الباب .

ونظرت الدوقة إلى الدوق لنشستر ، وفى عينيها نظرة توسل واضحة وقالت :

– إلفا لم تزل بالطبع صغيرة السن جداً، كما أنها شخصية أخرى، وطبع مختلف تماماً ومن كل وجه عن كارولين،وزوجى لا يفهمها، فهى حساسة للغاية وتختلف من وجوه كثيرة عن الفتيات الأخريات.

وكاد الدوق يقول لها إنه لاحظ هذا أيضاً ، لولا أنه تذكر أن المفروض أنه لم تسبق له رؤية إلفا : فقال بحزم :

– أنا متشوق إلى التعرف بالليدى إلفا .

وتنهدت الدوقة ، وكأنها بذلت جهدها من أجل ابنتها ، ولكنها لم تفلح : وكان اعتقادها دائماً أن ابنتها الصغرى مختلفة بطريقة يصعب عليها فهمها : وحتى عندما كانت طفلة صغيرة ، لم تكن إلفا تحب أن تدلل وتهدهد مثل سائر الأطفال .

إن آرثر كان يسميها « المبدولة » . ولعل هذا صحيح ! فوضع

الجن جنية طفلة فى مكان ابنتها الوليدة ، وبذلك قد لا تكون إلفا بشراً حقاً !

وطردت الدوقة هذه الخواطر من ذهنها برجفة ، فما تفكر فيه مخيف جداً ، ولئن كانت هذه الطفلة مختلفة عن سائر الأطفال ، فالخطأ مصدره الوالدان ، لا أى تفسير آخر .

أما آرثر فكان دائماً مفتوناً بكارولين لشدة جمالها ، والدوقة شخصياً تشعر بكل أمانة أنها تفضل ولديها أكثر كثيراً من أى من ابنتيها .

وعاد الدوق إلى قاعة الانتظار وقال :

– لقد بعثت فى طلب إلفا ، وأتمنى ألا تصاب فخامتك بخيبة أمل نتيجة اختيارك هذا الذى أصررت عليه !

وكان بادى الاستياء ، حتى أن الدوق لنشستر وجد عناء فى مغالبة الضحك ؟

* * *

صاحت إلفا :

– شكراً ! شكراً !

فقد أمرها والداها بأن تنزل إلى الحديقة مع الدوق ، كى يتاح له أن يتوجه إليها رسمياً بطلب يدها على انفراد .

وبمجرد أن نزلا الدرج من الشرفة إلى المرج المخملى ، ألقى الدوق نفسه ينظر متأملا إلى الفتاة التى بجواره .

وكانت قد خلعت زى ركوب الخيل وارتدت ثوباً أخضر يكاد يندمج مع أوراق الشجر والأزهار فى الحديقة ، وبدا له أنها صارت تبدو كالجنية الصغيرة أكثر مما بدت له أول مرة .

وما كان ليعلم أنها أخذت أولا من صوان ثيابها أحد الأثواب التى كانت قد صنعت لها خصيصاً لتأخذها معها إلى لندن كى يجرى تقديمها للبلاط الملكى .

وكان ثوباً أبيض ، وهو اللون المفروض أن ترتديه فى تلك المناسبات ، ولكن مع أن هذا اللون كانت كارولين خليقة أن تبدو فيه كآلهات الأساطير وربات الجمال ، إلا أنه على قوام إلفا كان يبدو غير صالح .

وبما أن الدوقة كانت دائماً أشد انشغالا بالحديقة من أن تهتم بما ترتديه أو لاترتديه ابنتاها ، لذا كانت تسمح لهما بمزيد من الحرية أكثر من معظم الفتيات فيما يختص بفساتينهما .

وكانت أبرع الخياطات ومصممات الأزياء قد صنعن لكارولين فى لندن ، فيما عدا هذا الثوب الأخضر . وقررت إلفا الاعتماد على براعة أنامل مسز بانكس الخياطة الخاصة المقيمة بالقصر .

والواقع أن مسز بانكس غدت بارعة جداً مع مرور السنين فى تقليد التصميمات المنشورة فى « مجلة السيدات » أو الفساتين التى ترتديها السيدات اللواتى ينزلن ضيوفاً لأيام معدودات أو يتناولن العشاء فى القصر ، فكان من عادتها أن تتسلل إلى حجراتهن عندما يكن فى نزهات

خلوية أو بحجرة الاستقبال ، وتبلغ اكتشافاتها لكارولين وإلفا ، خصوصاً إلفا .

وقد حدث منذ ثلاثة أشهر أن وجدت ثلاثة تصميمات بديعة من مبتكرات باريس من صنع « ورث » شخصياً . وقالت لإلفا :

— إن استطعنا الحصول على القماش المناسب ستناسبك هذه التصميمات وكأنك ولدت بها !

ولما رأت إلفا ذلك الفستان الأخضر ، عرفت أن مسز بانكس على حق، وقدرت الإلهام والخيال اللذين يتميز بهما « ورث » فى خلق هذا الثوب ، وأرسلت إلى لندن فى طلب الحرير والساتان والموسلين والتل ، لصنع عدة أثواب أخرى « اكتشفتها » مسز بانكس فى حقائب نفس هذه الزائرة .

وثوب ما بعد الظهر الذى كانت ترتديه الآن كان تقليداً بارعاً لإبداع « ورث » وبدا على قوامها النحيل وكأنه يطفو حولها كالحلم الجميل ...

ووجد الدوق نفسه يحس أن الحديقة هى المكان الصحيح لها ، وعندما قالت :

— شكراً ! شكراً .

بصوت يفيض بالصدق والإخلاص ، فكر الدوق فى لون شعرها الغريب الذى لايحتاج إلى أى مجوهرات لاجتذاب العين ، وقال لها :

— لم أكن أتوقع الشكر من أى امرأة على تقدمى إليها بطلب يدها،

– وسأشكرك جداً ، عندما تتقدم لى فعلا !

– أتريدين طلباً رسمياً حقاً ؟

فابتسمت إلفا وقالت :

– طبعاً ! فهذا شيء لابد أن أسجله فى دفتر مذكراتى إلى الأبد !

فنظر إليها بإمعان وقال :

– أعتقد أنك تضحكين منى ، وهذا بالتأكيد شيء لا ينبغى لك !

– ولماذا ؟ وآه لو عرفت الضجة التى أحدثتها بزيارتك ، لضحكت أو بكيت !

– أحقاً أصيبت شقيقتك بصداع حاد ؟

– كلا بالطبع ! بل كانت فى غاية الإشراق والسعادة عندما قلت لها كيف تفهمت فخامتك الموقف ! حتى أننى ذعرت خشية أن (يفقس) أبى الملعوب ؟

فقال الدوق بأسى :

– إنى أجد هذا مثبطاً جداً !

فقالت إلفا :

– لا أستطيع أن أفهم لماذا تقحم نفسك فى الموضوع ؟ إن كل ما كنت تنشده هو الحصول على «ماجنوس كروفت» وهذا ماستحصل عليه الآن فعلا !

– وزوجة « فوق البيعة ! »

– أنا أبرأت ذمتى حينما قلت لك ، وأنذرتك بأنى سأكون خيبة أمل لك !

– ولكنك وعدتنى بأن تجعلينى أجدك الاختيار الصالح !

– سأبذل كل جهدى فى هذا السبيل ! ولكن عليك أنت أن تقول لى ماذا تريد منى بالضبط أن أصنع عندما أكون المضيفة فى حفلاتك ومآدبك ، ولا أكتمك أنى كنت تواقة دائماً إلى أن أدعى لإحدى هذه الحفلات التى سمعت عنها الكثير ، لأنها كما سمعت أمتع كثيراً من تلك الحفلات التى نقيمها نحن هنا !

فسألها بعد وهى واثبة مستفزة :

– ماذا سمعت بالضبط عن حفلاتى ؟

– سمعت أنها كانت تصدم ماما ، ومعنى هذا أنها حفلات مسلية وممتعة للغاية ؟

فضحك الدوق وقال :

– اعلمى إذن أن ذلك النوع من الحفلات التى أشرت إليها سيتوقف تماماً بعد زواجى !

– ياالخيبة الأمل ! إن كنت ستفتح صفحة جديدة ، أو تمتنع عما يسمونه « اللعب بذيلك » ، فسوف تصاب بالضجر ، لأن معظم أهل الكونتية مسنون ومتكلفون ومملون للغاية !

وألقى الدوق نفسه هذه المرة يضحك من أعماقه قبل أن يقول :

– أظن ياإلفا ، إذا كان هذا ما سنلاقيه فى الريف ، أنه سيكون من الأفضل لنا أن نقيم الحفلات فى لندن .

ولم تجبه ، وسألها :

ـ فيم تفكرين ؟

ـ كنت أتساءل وأنت تنادينى هكذا باسمى الشخصى ، إنه قد ينبغى لى أن أسألك عن اسمك الشخصى :

ـ إنه : هنرى فردريك سلفانوس : ولكننى مثلك معروف بآخر هذه الأسماء :

ولاحظ وهو يكلمها هكذا بلا اهتمام أن إلفا كانت تحدق فيه بطريقة غريبة : ثم هتفت :

ـ سلفانوس !

ـ نعم : هذا اسمى ، ما عيبه ؟

ـ إنه اسم إله الأشجار .

ـ أتعرفين هذا ؟

ـ طبعاً ! لأن الأشجار مهمة عندى جداً ، ولقد كان سلفانوس دائماً إلهاً خاصاً جداً ، وأشعر بأننى قريبة منه جداً :

وكانت تتكلم همساً وهى تلهث ، ونظر إليها الدوق باستغراب وقال :

ـ أعترف أننى لم أنظر إلى هذا الاسم على هذا النحو قط ، والواقع أن مربيتى الأولى علمتنى شيئاً من الميثولوجيا الكلاسيكية ، ولكنى وجدت اللغة الإغريقية وأنا أدرس فى جامعة أكسفورد بالغة الصعوبة :

ـ كيف هذا ؟ لقد كانت الإغريقية دائماً لغة أتوق لدراستها ، إلا أن بابا قال إن ذلك لا ضرورة له بالنسبة للمرأة ، وبالمناسبة كان

سلفانوس إلهاً رومانياً ، ولكن معظم آلهة الرومان وربّاتهم مستعارون من الإغريق :

وأحس الدوق بدهشة إلفا لمدى جهله ، فقال مدافعاً عن نفسه :

ـ لعلك تستأنفين هذه الهواية بعد أن نتزوج .

ـ لقد كنت أخطط دائماً لتعلم اللغة الإغريقية ، وأخطط أيضاً للأسفار والرحلات .

ـ إلى بلاد الإغريق فيما أظن ؟

ـ أتمنى أن أذهب إلى هناك ، ولكن شوقى الأكبر للذهاب إلى القوقاز ، حيث أعتقد أن الأشجار أغلظ وأفخم وأبهى من أى أشجار فى مكان آخر من الدنيا كلها !

وكانت تتحدث بصوت حالم ، وكأنها نسيت إلى من تتحدث : فقال الدوق :

ـ لا أكاد أظن أنه سيكون من الممكن زيارة القوقاز فى الوقت الحاضر ، ولكن إذا كنت شديدة الشغف بالغابات . فإنى أوصيك بزيارة النمسا ، والغابة السوداء بالطبع !

ـ فأطلقت إلفا صيحة نشوة صغيرة ، ثم كأنما عادت ثانية إلى الأرض قالت :

ـ أنا واثقة أن مثل هذه الأماكن ستكون مضجرة لفخامتك ، غير أنى أعتقد أن لديك فى دائرة شستر غابات جميلة للغاية ـ أجمل حتى من غاباتنا :

فأجابها الدوق :

— لم تتح لى فرصة المقارنة بين الاثنين ، ولكنى طبعاً أرجو أن تكون غاباتى هى الأجمل !

فابتسمت له ورأى غمازتيها، وقالت :

— أنا تواقة إلى أن أتمكن من أخبارك هل اعتقادك هذا فى محله أم لا .

فأجابها الدوق قائلا :

— إن كنت تلك المرأة الكيسة اللبقة التى أتمنى أن تكون زوجتى ، فسوف تقولين لى طبعاً إن اعتقادى فى محله : سواء اعتقدت أنت ذلك أم لا !

ولدهشته الشديدة هزت إلفا رأسها وقالت :

— لا أعتقد أن هذا ما تريده حقاً ، فأنت إنجابى تحب الجدل وتحب العقبات ، بل والمعارك ، كى تصل إلى غرضك وتنفذ مشيئتك !

فحملق فيها الدوق بدهشة وسألها :

— ما الذى جعلك تقولين هذا ؟

وشعرت أنها أفرطت فى الكلام وأفشت سراً خاصاً ، فقالت بسرعة :

— إنما هى مجرد ... حدس ... تخمين !

— هاأنت ذى لاتقولين الحقيقة ، فما الذى سمعته يقال عنى فحداك إلى أن تقولى عنى ما قلت الآن ؟

— إنه ليس شيئاً ... سمعته .

— إذن ما هو ؟

فترددت ، وأحس أنها تحاول مراجعة نفسها لتقرر أتثق به أم لا ، وعندئذ قال لها بلهجة الآمر :

— أخبرينى يا إلفا، فأنا أريد أن أعرف !

فرمته بنظرة من تحت أهدابها الوطفاء الغزيرة كأهداب الأطفال ، ولكن هذه النظرة كان فيها شىء محسوس جعله يوقن بأن ما تفكر فيه ليس طفولياً .

وسألته بعد لحظة :

— ألى أن أقول .. إنى كنت أستخدم ... غريزتى ؟

— أتعنين بهذا أن ذلك هو إحساسك بى ؟

— هذا ما أعرف أنه يمثل شخصيتك .

— وكيف عرفت ؟

— لأننى فى بعض الأحيان أعرف .. أشياء عن ... الناس بالسليقة . وهذا ليس شيئاً يمكننى تفسيره ، ولكنى لا أخطئ فى هذا أبداً .. !

وتحير الدوق ، وقال :

— وماذا تعرفين عنى أيضاً ... ؟

— لا شىء بالتحديد فى الوقت الحاضر ، فأنا حينما « أعرف » هذه الأشياء ترد على ذهنى فى وميض كوميض البرق ، فإذا بها هناك ولا حيلة لى فى هذا ، فلا أستطيع لها رفضاً أو تعديلا .

وأحس الدوق أن هذه المحادثة من أغرب ما يكون بين أى



وأحس الدوق أن هذه المحادثة من أغرب ما يكون بين أى شخصين ، ودع جانبًا أن يكون حديث فتاة صغيرة يقابلها الآن للمرة الثانية ..

شخصين ، ودع جانباً أن يكون حديث فتاة صغيرة يقابلها الآن للمرة الثانية . وقال :

– أحسبنا ينبغى أن نعود الآن إلى القصر ، فقد غبنا عنه الفترة المتعارف عليها ، كى أطلب يدك رسمياً للزواج ، ولكى تقبلى هـذا الطلب .

فقالت إلفا :

– أحس أنى خدعت بل غششت . فإنى كنت أحب أن أسجل ألفاظك الفعلية فى دفتر مذكراتى :

– وهل تكتبين مذكراتك حقاً ... ؟

– إنها ليست مذكرات بالضبط .

– إذن ماذا ؟

– أكتب قصائد فى بعض الأحيان.. وأسجل أى ألفاظ أو عبارات لها معنى خاص عندى .

– آه . أظن هذا هو المنتظر من « جنية » .

فأجابته بسرعة :

– وأيضاً من إله الأشجار !

فضحك ، ثم قال :

– أما أنا فلم أكتب قصيدة منذ كنت فى الثامنة عشرة ، ووقعت فى الحب لأول مرة .

– وماذا كان شكلها ؟

– كانت تقوم بدور جولييت فى فرقة مسرحية متجولة جاءت إلى أكسفورد ، واعتقدت أنها أجمل شخص رأيته فى حياتى كلها ؛ وصرت أذهب إلى المسرح كل ليلة لمدة أسبوع قبل أن أستجمع شجاعتى وأذهب إلى حجرة ملابسها ؛

فسألته :

– وماذا حدث ؟

– ما لا مفر من حدوثه فى الحياة الواقعية ، انقشعت عن عينى الغشاوة .

– لماذا ؟

– كانت ممثلة عظيمة الخبرة ، تقترب من الأربعين ، ويبدو عليها عمرها بدون المكياج ؛

– وهكذا مزقت قصائدك ، ولكنها مع هذا بقيت فى فؤادك ؛

وأوشك الدوق أن يسألها كيف عرفت هذا ، ولكنه وجد ذلك سيكشف من نفسه أكثر مما ينبغى ، وقال :

– لقد نسيت حتى الآن كم كنت مغفلا ، وسرعان ما أغرقت أحزانى فى الخمر ؛

وفيما كان يتكلم رأى من تعبير محيا إلفا أنها لم تصدقه ، وراوده الشك أنه سيرى غمازتيها الآن مرة أخرى فى أى لحظة .

وعادا إلى القصر ، وصعدا الدرج إلى الشرفة ، وكان الدوق والدوقة فى انتظارهما ، وعرفت إلفا وهما يدخلان قاعة الاستقبال أن

أباها وأمها كانا يتجادلان بعنف ، وعرفت بالقطع موضوع هذا الجدل الغاضب ، فنظرات خيبة الأمل كانت تطل بوضوح من عينى أبيها ، وبعد بضع كلمات تقليدية استأذن الدوق فى الانصراف وقال :

– أقيم حفلا فى نهاية هذا الأسبوع ، ولذا يجب أن أسافر إلى لندن ، ولكنى آمل أن نتقابل ثانية فى المستقبل القريب .

وسأله الدوق نورثالرتون :

– أتحب أن أبعث بإعلان الخطبة إلى الجازيت ؟ أم تحب أن تتولى أنت هذا ؟

– بل أكون شاكراً جداً إذا تفضلت أنت بالقيام بذلك . وعندما نتقابل المرة القادمة فى محل هوايت يمكننا أن نبحث أنسب موعد للزفاف ...

وفيما هو يقول ذلك تذكر أنه إذا كان يريد الصيد بسرعة فى ماجنوس كروفت ، فكلما أسرع رجاله بتسلمها كان أفضل .

وكان كبير حراس صيده قد شكا إليه مراراً من كثرة الهوام التى سمع لها بالتراكم هناك ، وأنها تعرقل الصيد ، فهذا الحارس قال عدة مرات فى الموسم الماضى :

– لقد كثرت فى ماجنوس كروفت أنواع العقعق وابن عرس والسنجاب ، ونبذل قصارى جهدنا فى محاربتها ، ولكنها مع ذلك تغير على طيورنا ودواجنا وبيضها بالعشرات ، أما الرخ فيفترس الطيور

الصغيرة المغردة وغيرها ، وحراس صيد دائرة الرتون لا يحركون ساكناً لصدها .

ولذا خطر للدوق أنه كلما عجل بزواجه كان ذلك أفضل ففيم الانتظار ؟ والواقع أن سر لهفته كله هو استرجاع ماجنوس كروفت بأسرع ما يمكن .

وكان فى طريقه إلى الباب عندما وقف وقال :

– خطر لى الآن أننا إذا تزوجنا فى الريف ، وهو مالا أشك فى أننا جميعاً نفضله ، فمن الخير أن يكون هذا فى الصيف ، عندما تكون الحديقة فى أوج بهائها ..

وكان يعلم أنه بكلامه هذا سيجد خير حليف فى الدوقة ، وفعلا قبل أن يتكلم أى أحد قالت الدوقة بلهفة :

– طبعاً طبعاً ! والورد يبدو لى أنسب كثيراً للزفاف من الزنابق البيضاء .

ووافق زوجها قائلا :

– وهو كذلك، هذا الصيف، ولكن الناس قد يظنوننا نتعجل الأمور .

ونظر نظرة فاحصة إلى دوق لنشستر وقال :

– يخامرنى إحساسى أنك تريد الصيد فى ماجنوس كروفت الخريف القادم .

– لقد خطرت لى هذه الفكرة فعلا .

فضحك دوق نورثالرتون ، وعاد إليه اعتدال مزاجه لحظة وقال :

– سنتبارى معاً لنرى أينا أحسن حظاً فى الصيد .

– سأحاول أن أفوز ! ما رأيك فى تحديد الزفاف فى أول يوليو؟ فمعظم الناس يكونون قد غادروا لندن فى هذا الوقت :

ورأت إلفا أمها تعد على أصابعها بسرعة لتعرف أى الأزهار ستكون موجودة حينئذ ، ثم قالت الدوقة أخيراً :

– الأسبوع الأخير من يونيو أفضل كثيراً :

فقال الدوق لنشستر :

– وهو كذلك ، وأنا متأكد أننا نستطيع عمل الترتيبات كى تتم المراسم فى ذلك الأسبوع ، وسأترك هذه المهمة فى يدى فخامتك :

ثم انحنى فوق يد الدوقة برشاقة مدهشة :

وكانت إلفا واقفة فى المؤخرة فلم يأخذ أحد رأيها مع أنها العروس . وكانت أعلم من الدوق بمدى إهمال غابة ماجنوس كروفت .. ولكنها كانت تفضلها هكذا، وعندما كانت تركب بمفردها – وهو ما لم يكن سهلا ميسوراً بسبب تعليمات أبيها – كانت تذهب إلى هذه الغابة وترقب فى حبور الطيور البرية المتباينة والحيوانات التى كانت تعلم أن حراس الصيد يصفونها بأنها هوام ، وكان بغيضاً إلى نفسها أن يقتلوها ، ولكنها فى الوقت نفسه تذكرت فتك هذه الهوام بالطيور المغردة ، التى لم تعد تستطيع بناء أعشاشها فى هدوء وإطلاق عقيرتها بالصداح الشجى .

وكما كانت الدوقة والدتها تحصى الأسابيع اهتماماً بالأزهار ، كانت هى أيضاً تحصى الوقت الذى تظل فيه ماجنوس كروفت على فطرتها الوحشية ، وقالت لنفسها :

— سأتسلل فى وقت مبكر غداً قبل أن يفطن بابا إلى أننى ركبت بمفردى وليس معى سائس .

ثم تنبهت أن الدوق أخذ فى الانصراف فعلا،وأن والدها يسير معه نحو الباب الأمامى، وعرفت أنه ينبغى عليها أن تصحبهما ؛ فمشت خلفهما ... ولما وصل الدوقان إلى الباب الأمامى وقفا ، ومد دوق لنشستر يده إليها وقال :

— إلى اللقاء ياإلفا ، آمل أن أراك قريباً جداً .

فانحنت إلفا بتهذيب وقالت :

— أعتقد أنه لن يكون هناك مناص من ذلك ياصاحب الفخامة .

وكانت تطل من عينيها نظرة « عفرتة » جعلته يتساءل أهى تعنى أنه لا مفر من ذلك بالنسبة له أم بالنسبة لها .

ولما انطلق بغيتونه نظر وراءه ليراها واقفة هناك فى الباب بجوار أبيها ، بقامتها الهيفاء فى الثوب الأخضر : وحدثته نفسه أنها تبدو فى غير مكانها الطبيعى أمام خلفية أحجار القصر الرمادية .. فهى تنتمى للغابة ، لا للمبنى .

وخطر بباله أن إلفا ربما تتصنع ذلك ببراعة كى تلفت إليها الأنظار ، لأنها لا تستطيع بحالتها الطبيعية منافسة شقيقتها .

ووجد نفسه يفكر فى كل ماخاضا فيه من أحاديث ، وأخيراً اقتنع أنه مهما حاول اختراق قناع الغموض الذى تلتف به ، فلا مفر له من الاعتراف بأنها أمينة مخلصة،وأن ما قالته لم تقله للتأثير فيه ، بل خرج من فمها تلقائياً .

وقال لنفسه :

— ويا له من أمر غريب ! إن نورثالرتون وزوجته شخصان عاديان جداً وليس فيهما أى طرافة من نوع خاص ، فكيف أنجبا مثل هذه الطفلة غير العادية ؟

ثم تذكر أن إلفا قالت له إن المفروض أنها « مبدولة » . وزجر نفسه قائلا :

— طبعاً لا وجود لهذه الخرافات : وأتوقع أننى بعد أن أعرفها مدة قصيرة سأكتشف أن آراءها الغريبة إنما هى أفكار عادية ، شأنها شأن أى إنسان آخر .

ولكنه فى الوقت الراهن اعترف مكرهاً بأن مظهر إلفا ، وكل ما قالته وفعلته ، كلها أمور خارقة للمعتاد .

وأحس الدوق أثناء العودة أنه يخطو إلى عالم لم يفهمه ، عالم لا يصدقه ، ويقول له عقله : إنه غير موجود وجوداً محسوساً واقعياً .

ومع هذا كله لم يستطع المكابرة فى أن إلفا موجودة ، فى ذلك العالم الخيالى :

ولكنه لايدرى أين ولا كيف ولا لماذا ..

* * *

الفصل الرابع

خرجت إلفا ببطء من حجرة نومها ونزلت السلم إلى حيث تعلم أن والدها فى انتظارها بالبهو :

وكانت تتساءل : هل سيلاحظ أن ثوب زفافها ليس تقليدياً ؟ ولكن بما أنه لم يزل آسفاً أسفاً مريراً على أن العروس ليست كارولين، لذا لم يكن من المرجح أنه سيمعن النظر فيها .

وعندما ذهبت – قبل ذلك – إلى لندن مع والدتها لشراء جهازها، كانت مصممة على شراء الأشياء التى تعرف أنها تناسبها، لا الأثواب التى كان ينتظر منها أن تشتريها لعرسها .

ذلك أنها كانت قد أمعنت التفكير فى الانطباع الذى يجب أن تتركه فى الناس بصفتها زوجة الدوق ، وكانت تدرك تماماً أن أصدقاءه سيدهشهم أنه – وقد كان له الخيار بين الأختين – لم يقع اختياره على تلك التى عرفت من قبل بجمالها الفائق .

وكانت إلفا تخشى أن يلقى انتقادهم بعض الريب أو الإساءة على كارولين ، فيدفع ذلك والدها إلى البحث لها عن خاطب آخر من ذوى الحيثية . وعزمت على مساعدة إدوارد قدر طاقتها ، وإن لم تدر الآن كيف يكون هذا .

ولكن اهتمامها انحصر الآن فى أن تبدو بقدر الإمكان فى ثوب زفاف تحوز به أكبر قدر من الإعجاب ، وذلك يعنى ألا يكون

تقليدياً ، بل مناسباً لقوامها وشكلها المتميز ، ويقتضى ذلك أن تشغل أمها عنها لتنفرد بانتقاء جهازها فى لندن ، فقالت لها بعد الدورة الأولى بين محلات الأزياء الكبرى :

– تعرفين يا ماما أن تجارب الأثواب وتعديلاتها ستستملك كثيراً ، فلماذا لا تذهبين أنت إلى حدائق كيو لترى النباتات الجديدة هناك ؟ وأعتقد أن هناك أيضاً فى هذا الوقت من السنة مهرجانات ، ومعارض للأزهار أعرف أنها ستحوز كل اهتمامك .

ووافقت الدوقة بكل سرور على هذا الاقتراح ، ولكنها اشترطت على ابنتها ألا تذهب بمفردها إلى الحوانيت ، بل تأخذ معها خادماً قديمة محنكة :

وما إن ذهبت إلفا إلى هناك حتى ألغت كل الفساتين والأثواب التى كانت أمها قد اختارتها فى الجولة الأولى واختارت غيرها تناسبها من حيث التصميم والإكسسوارات والألوان .

وكانت الصعوبة الكبرى متعلقة بثوب الزفاف ، لأنها صممت على ألا تتزوج فى ثوب أبيض كعادة العرائس ، لأنها تعرف أن اللون الأبيض لا يناسبها إطلاقاً .

ولحسن الطالع أنه كانت من بين المحلات التى طافتا بها محل مصممة أزياء صغيرة لا تتميز بتفكير مستقل فحسب ، بل كانت قد ذهبت إلى باريس وعملت هناك تحت إشراف « فردريك ورث » نفسه ، وتعلمت من « ورث » الطرق التى بها يصنع الأثواب لتناسب

شخصية لابستها ، لا قوامها فحسب : وبالاشتراك مع هذه المصممة صممت إلفا ثوباً رائعاً مثيراً ، ويناسب فى الوقت نفسه قوام إلفا وملامحها غير العادية وشعرها المتوهج :

وكانت قبل ذلك بيومين قد قالت لخطيبها الدوق عندما تقابلا فى حفل كبير أقيم احتفاء بهما :

ــ ألا تقدم لى هدية ؟

ــ طبعاً ! ولكن إن كنت تريدين قلادة من الزمرد تضاهى خاتمك ، فسوف تجدين قلادة بديعة فى مجموعة لنشستر .

وهزت إلفا رأسها .

وقد أدهشها فى الواقع أنه أحس من تلقاء نفسه أنها لا تحب الألماس ، وأن الزمرد هو الأثير لديها ، وله معنى خاص عندها :

وعندما أهداها الدوق قبل ذلك خاتماً ضخماً من الزمرد تحف به الماسات كأنها تشع بضوء غريب غامض ، نظرت إليه برهة طويلة قبل أن تقول :

ــ كيف بالله عرفت أن هذا ما كنت أتمناه أكثر من أى حجر كريم آخر ؟

ــ لأننى لست متبلد الحس كما تظنيننى .

فرفعت نظرها إليه ، وتبين لأول مرة أن عينيها يختلط فيهما وميض الذهب باللون الأخضر ، وقالت :

ــ هذا اللون هام جداً بالطبع عندى ، وعندك أيضاً :

وضحكت ولبست الخاتم وهى تعرف أن النساء ستتقد غيرتهن لرؤيته وفداحة ثمنه .

والآن ردت على سؤاله عن رغبتها فى القلادة قائلة :

ــ لست راغبة فى شىء ثمين إلى هذه الدرجة ، بل أتمنى باقة من الأزهار أحملها فى يدى أثناء الزفاف .

فبدت الدهشة على وجه الدوق ، ووضحت له المسألة :

ــ لقد أمر والدى البستانيين لإعداد باقة من القرنفل الأبيض والورد الأبيض والزنانق البيضاء . أى أنها ستكون باقة ضخمة أكاد أختفى وراءها :

ــ وماذا تريدين بدلا منها ؟

ــ باقة من الأوركيد الأخضر ، وأنا واثقة أنه متوفر فى صوباتك :

ــ وإن لم يوجد هناك ، سأبعث فى طلبها من لندن .

ــ شكراً لك !

ومع أنه يرى أن هذا الأوركيد الأخضر نوع غريب من الأزهار تحمله عروس فى زفافها ، إلا أنه سكت ولم يقل شيئاً .

وها هى إلفا الآن تنزل السلم حاملة أزهارها الخضراء نحو البهو ، ووقع نظرها على والدها وهو ينتظر بنفاد صبر ، ورأت فى الوقت نفسه صورتها منعكسة فى المرآة الكبيرة عند منعطف السلم ، وتأكد لديها أنها لا تشبه مطلقاً العرائس التقليدية :

فالفستان الباريسى الأناقة فضى اللون ، ومزين هنا وهناك

بالترتر ، الذى يبدو مثل قطرات الندى ، ويتلألأ مع كل حركة من حركاتها ، فكأنها حورية خارجة لتوها من أعماق البحيرة لتغـدو وتروح بين البشر :

وكان نقابها أيضاً ستاراً خفيفاً من التل الفضى اللون ، كان مستر « ورث » ابتكره فى باريس منـذ أعوام قلائل خصيصاً لأجـل الإمبراطورة أوجينى .

وبدلا من التاج الذى وضعته أمها الدوقة تحت تصرفها ، لبست إلفا إكليلا من الأزهار الفضية أواسطها منك مصنـوعة من الترتر المتلألىء .

وبعد مجادلات استمرت أسابيع كسبت إلفا المعركة وأصرت على ألا تكون لها وصيفات شرف . وكانت تقول :

ــ كارولين أطول منى ، وإذا تقدمت كوكبة من الفتيات لهن نفس طولها سأبدو مضحكة ، وسيتبين الناس أن كارولين كان ينبغى أن تكون العروس ، ولا سيما أنها الأكبر سناً ، ومن المهـانة لها أن تكون مجرد وصيفة للعروس .

وكانت هـذه الحجة الأخيرة هى التى حسمت النقاش ، ولفتت نظر والدها الدوق مرة أخرى إلى أن ابنته الأثيرة لديه سيكون لقبها أدنى من لقب ابنته الثانية .

ووصلت إلفا إلى الدرجة الأخيرة من السلم الكبير . وقال أبوها بحـدة :

ــ أسرعى ! أسرعى ! كان ينبغى أن نكون فى الكنيسة الآن .

ــ معظم العرسان مستعدون للانتظار :

ــ كلام فارغ ! فإنك إذا جعلت لنشستر ينتظر أكثر مما ينبغى قد يغير رأيه ، فماذا يكون من أمرك ؟

ــ أعود معك إلى البيت يا بابا ! وفى هذه الحالة تحتفظ بماجنوس كروفت !

ولم يعجب أباها هـذا الرد ، فأسرع بها إلى اللاندو الرسمى الذى كان بالانتظـار ، وهو مركبة فخمة لم يكن الـدوق يستخدمهـا إلا لحضور افتتاح البرلمـان ، ولكن رءوس الخيول كانت هذه المرة مزينة بريشات بيضاء ، والحجاب فى ملابسهم الرسمية المزخرفة ؛ وأدركت إلفا أن القرويين على الأقل سيستمتعون بهذا الموكب :

ورفع الحجاب ذيل العروس الطويل إلى داخل المركبة ، وأغلق الباب ، ومضت المركبة الهوينا نحو الكنيسة النورمندية الرمادية الصغيرة خارج بوابات البساتين مباشرة :

وبحركة إعزاز غير معتادة دست إلفا يدها فى يد أبيها وقالت بصوت خفيض :

ــ إنى حزينة من عدة وجوه لمغادرة البيت الذى سعدت فيه بطفولة هانئة يا بابا ، وسأكون دائماً مدينة لك بالعرفان ؟

وبدت الدهشة على الدوق ، ثم قال :

– أنت فتاة غريبة يا إلفا ، ولست أزعم أنى أفهمك ، ولـكنى فخور بالمركز الذى ستحتلينه الآن !

– أنا مسرورة يا بابا !

– لنشستر سيعاملك كما يليق ، لقد كان جامحاً بعض الشىء ، وله سمعة معينة ، ولا معنى لتجاهلى ذلك ، ولكنه جنتلمان ولن تندمى على الزواج به .

– أتمنى ذلك يا بابا !

– وأنت أيضاً يجب أن يكون تصرفك معه كما ينبغى ، لا نوبات هستيرية أو هياج بسبب الغيرة ، ثم إن الزوج له حقوقه ، وأياً كان ما يصنعه الله يجب أن تتقبليه ؟

وساد صمت ، ثم سألته إلفا بصوت حائر :

– ماذا تعنى بذلك يا بابا ؟

وساد الصمت مرة أخرى قبل أن يقول الدوق :

– أظن أن والدتك حدثتك حديثاً خاصاً عن الزواج ؟

– لا يا بابا !

فأطلق الدوق زمجرة ضيق وقال :

– كان ينبغى أن تحدثك فى هـذا الشأن ! ومن السخف أن تتركك على جهلك ، وأظنها فى هذه الحالة كانت تحسبك تعرفين :

– أعرف ماذا يا بابا ؟

وبدا على الدوق أنه لا يدرى ماذا يقـول . وفى هـذه اللحظة

انعطفت الجياد خارج البوابات الحديدية وصارت الكنيسة قبالتهم مباشرة ، فقال بسرعة :

– سيكون على لنشستر فى هذه الحالة أن يقوم بالشرح ، والله يعلم أن لديه خبرة واسعة فى هذا الباب ، وكل ما عليك أن تنفـذى ما يريد منك بلا معارضة . أفهمت ؟

ولم يكن هناك متسع من الوقت كى تجيب إلفا ، ولو كانت أجابت لما سمعها الدوق .

وكان هناك حشـد من موظفى الدائرتين يهتفون بصـوت عال عندما بدت المركبة الفخمة لأنظارهم . وعندما وقفت خارج الكنيسة صار الهتاف يصم الآذان .

ولم تتسع الكنيسة الصغيرة إلا للأقارب وعـدد محـدود من الأصدقاء الشخصيين ، ولذا تم الاتفاق على أن الموظفين والعـاملين فى الدائرتين يحتشدون أمام الكنيسة ليروا العروس عند وصولهـا ، ثم يتركونها مع العريس ، وعليهم إما المشى على أقدامهم أو ركوب عربات الدائرتين إلى قصر تاورز ، حيث أقيم سرادق كبير لهم فى الحديقة ، وقد تناثرت فيه مناضد محملة بالمآكل من كل نوع ، وهناك أيضاً دنان وبراميل كافية من الجعة ليشربوا ويمرحوا إلى ما بعد انصراف العروسين فى رحلة شهر العسل .

والآن ، خطت إلفا من المركبة اللاندو الفخمة، كانت تتوارى

وراء هذه الهتافات صيحات صغيرة من علية القوم من فرط الدهشة لرؤيتها .

وابتسمت من خلف قناعها التل الفضى لكثير من الحاضرين الذين تعرفهم جيداً ، ولم تشعر بالاستحياء الذى كان ينتظر أن تشعر به عروس يوم زفافها ، بل كانت مدركة أن أباها ما زال يغمغم لنفسه بشأن ما حدثها فيه فى المركبة ، ولأنها وجدت ذلك الحديث محيراً قررت أن تتناساه فى هذه اللحظة وتركز على ما حولها .

وكانت الكنيسة مكتظة إلى حد الاختناق .

ولاحظت من ركن عينيها عدداً من الأقارب الذين كان والدها قد خاصمهم منذ سنين ، وهى متأكدة أنهم لم يحضروا إلا لأنها تتزوج من دوق .

ثم رأت عريسها ينتظرها عند المنصة ، ولاحظت أنه ليس بين الحاضرين من يضاهيه أناقة ووسامة ، ولاحظت أيضاً أنه يدارى السأم من كل هذه المراسم وهذا الزحام .

ثم التقت عيناها بعينيه وألمحت فيهما وميضاً خفيفاً ، هو انعكاس لزيها المتميز .

واستغرقت المراسم التى ترأسها أسقف الأبروشية ، وعاونه ثلاثة آخرون من الكهنة ، مدة أطول من المعتاد فى عقد قران الشخصيات الأقل أهمية من دوق ودوقة .

وأضيف إلى جوقة المرتلين جوقة منشدى كنيسة آل لنشستر ، فانحشر الكل فى موضعهم حتى تعذر على صغار الغلمان تقليب الصفحات فى كتب الترانيم : وأنشدوا بحماسة عظيمة ، ولكن إلفا وجدت إنشادهم غير متناغم .

وبعد أن باركهما الأسقف ، قدم لها الدوق ذراعه ليقودها إلى المقصورة للتوقيع فى السجل ، وانضم إليهما هناك عدد من الأقارب ؛

وكانت كارولين هى التى رفعت نقاب إلفا عن وجهها وألقته على رأسها وهمست لها :

— ثار غضب ماما عندما رأت ثوبك !

— كنت أتوقع هذا ، ولكن فات أوان عمل أى شىء !

وابتسمت كارولين ، فتألق جمالها ، فتساءلت إلفا بينها وبين نفسها : ألا يشعر الدوق الآن بالندم لأنه لم يطلب يدها كما كان يعتزم فى البداية .. وتذكرت أنه عندما رأى كارولين أول مرة فى حفل غداء عائلى حدق فيها غير مصدق عينيه ، وكأنه يعتقد أنه لا يمكن أن يجد من تضارعها فى الجمال فى أنحاء القطر كله ...

ولكن إلفا فطنت إلى أن كارولين تبدو بهذا الإشراق لفرط سعادتها ، وتخيلت دموعها وأحزانها لو كانت قد تزوجت الدوق مرغمة .

وكان الدوق متعجلا على مغادرة المقصورة ، وخرجا لتقبل التهانى ، وتعالى الهتاف فى الخارج ، وكانت هناك عربة مفتوحة فى انتظارهما ، نثر عليهما فيها ورق الورد والأرز قبل أن ينطلقا :

وقال الدوق :

– لا أكره شيئاً مثل رمى الأرز فى وجهى ، فهو مؤلم كلدغ النحل !

وضحكت إلفا وقالت :

– أعرف أنك لم تجرب هذا من قبل ، وينبغى ألا تتكرر هـذه التجربة ، اللهم إلا إذا حدث لى حادث مؤسف ، أو مت فى سن مبكرة !

– أتمنى ألا يحدث لك شىء من هذين الأمرين .

وخطر بذهنها أنها إن ماتت ، سيكون حراً فى أن يتزوج من يشاء ، وسيحتفظ أيضاً بماجنوس كروفت .

وقالت لنفسها : إن هذا ليس نوع الخواطر التى تدور فى ذهن عروس يوم زفافها ، وانحنت لتضع باقة أزهارها من الأوركيـد الأخضر على المقعد المقابل لها ، وهى تقول :

– شكراً لك على الأوركيد ، ولعلك ترى أن باقة أشبه بباقات مهرجان الحصاد ما كانت تليق بى وبثوبى !

– ثوبك غير عادى ، وكذلك كل ما فيك !

– حسبتك سترضى عنه ، وإن كانت كارولين همست لى أن ماما ثار غضبها ، وقد دبرت أمورى لأشترى هـذا الثوب من غير أن تعلم هى بذلك !

فابتسم الدوق وقال :

– لقـد بدأت تروعيننى يا إلفـا ، ويخامرنى الإحسـاس بأنك ستستخدمين كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتنفيذ إرادتك !

– ليس هذا صحيحاً ، فأنا لا أفلح فى تنفيذ إرادتى إلا أحيـاناً قليلة ، وإنمـا أردت أن أجعلك فخوراً بى .

– لقد أفلحت فى هذا فعلا !

ووصلا إلى قصر تاورز ، ودخلا البهو الذى كان مزيناً بعقـود وحبال من الأزهار ، ومشيا إلى المنصة الصغيرة التى سيقفان عليها :

وتولى كبير الخدم ، ذو الصوت العالى الشبيه بأصوات كبار الكهنة ، إعلان أسماء الضيـوف ، وجـاء الأقارب فى المقـدمة ، ولاحظت إلفا أن أقاربها كانوا شديدى التودد للدوق ، فى حين كان أقاربه متحفظين بشكل واضح عندما تكلموا معها .

وألفت نفسها تتساءل : كم منهم يعرف أو يخمن دافع الدوق لهذا الزواج .

وأخيراً ، بعد أن انتهيا من مصافحة عدد كبير من أعيان الكونتية ، بدأ الإعلان عن دخول الأصدقاء القادمين من لندن . وكان كثيرون منهم لم يعنوا أنفسهم بالذهاب إلى الكنيسة ، بل ركبوا مباشرة إلى حفل الاستقبال :

وصاح كبير الخدم : « اللورد والليدى ديوهيرست ! »

ومدت امرأة بارعة الجمال كلتا يديها إلى الدوق وصاحت :

– سلفانوس ! أتمنى أن تكون سـعيداً جـداً جداً . وكيف

يسعنى — من دون جميع الناس — أن أتمنى لك شيئاً آخر .

فقال الدوق : « شكراً لك ! » ورفع يدها إلى شفتيه :

وما لم تكن ألفاظ الليدى ديوهيرست أنبأت إلفا بأنها من بين عشيقات الدوق ، فنظرتها الفاحصة الناقدة إليها كشفت النقاب عن كل شيء بوضوح تام .

وكانت هناك امرأتان أخريان بارعتا الجمال شكت فى أنهما قامتا بنفس الدور فى حياة زوجها الماضية . ثم سمعت كبير الخدم يعلن :

— إيرل وكونتس والشنجهام !

وكان هذا هو الاسم الذى كانت تتوقع إلفا سماعه . وكانت تظن مما سمعته أن الكونتس قد لا تحضر الزفاف ، ولكن ها هى ذى :

ولاحظت إلفا على الفور بعض التشابه بين جمالها وجمال كارولين : فالكونتس شقراء أيضاً ، ولكن شعرها كان ذهبياً ثقيلا كلون القمح الناضج ، وعيناها زرقاوان جداً ، وملامحها كاملة الحسن ، وكذلك لون بشرتها الأبيض المشرب بلون الورد . وتبين من طريقة لبسها أنها جاءت بنية التألق فى عرس الدوق :

كانت ترتدى اللون الأزرق من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، ليضاهى لون عينيها . وتلألأت بالألماس الذى تتزين به حول جيدها ، وفى أذنيها ، وفى أصابعها وحول معصميها . أما صدر ثوبها فكان مرصعاً بالجواهر :

ووقفت لحظة أمام الدوق ، وهى تنظر إليه ، ثم قالت بصوت حميم تقصد به أذنيه دون سواه :

— أيها العزيز الأعز سلفانوس ! أعرف أننا لا يمكن أبداً أبداً أن ينسى أحدنا الآخر فى أى وقت ، وبالأخص فى هذه الليلة ؟

فقبل الدوق يدها من غير أن يتكلم ، وتحركت الكونتس لتواجه إلفا .

وها هنا اكتسى وجهها بتعبير مختلف تماماً ، وأطلت من عينيها القاسيتين نظرة مختلفة تماماً ، وعرفت إلفا بغريزتها أنها امرأة خطرة .

ولم تتكلم الكونتس ، ولم تمد يدها ، واكتفت بالنظر إلى إلفا ، والتوت شفتها العليا بازدراء قبل أن تبتعد ..

ولم يلاحظ الدوق الذى كان يرحب بالإيرل شيئاً ، ولكن إلفا اعتقدت أنها ليست بحاجة إلى من يخبرها أنها قابلت عدوة لها وأن الحرب بينهما قد أعلنت !

* * *

واستغرق الاستقبال وقتاً طويلا ، ثم انصرف العروسان من قاعة الرقص إلى السرادق فى الخارج ، ليحييهما بالهتاف المدوى مستأجرو الدائرتين والمستخدمون الذين كانوا قد أكلوا كثيراً وشربوا أكثر .

وألقى الدوق خطبة قصيرة قوبلت بالضحك والقهقهة ، حتى

خشيت إلفا أن يقعوا من فوق « الدكك » التى كانوا جالسين فوقها ، وشرب الجميع نخب العروسين ، وأنشدوا أناشيد الأعراس ، ثم هتفوا بحياتهما عندما غادرا السرادق إلى العربة المكشوفة التى كانت فى انتظارهما أمام الباب .

واقترح الدوق ، ووافقت إلفا أن القيادة الطويلة مرهقة لها ، لذا قررا المبيت فى قصر تشستر هاوس ، وفى اليوم التالى يرحلان بهوادة إلى استراحة الصيد التى يملكها الدوق فى ليستر شاير . وقال الدوق :

– إنى أحتفظ دائماً ببعض جيادى هناك ، وستجدين متعة فى ركوبها ، ولا سيما حول ميدان السباق الذى أقمته بحواجز صعبة الاجتياز .

– كم أحب هذا .

وأحست أنه لا يفكر فى متعتها قدر تفكيره فى متعته الخاصة ، ولكن ذلك على كل حال أفضل من السفر إلى الخارج . لأنه سيسأم بلا شك التجول بين المتاحف أو الأطلال الرومانية ، وليس هناك من يكلمه سواها . وبعد برهة قال لها :

– لقد دعوت إلى ليستر شاير صديقى هارى شلدون ... وهو فارس ممتاز جداً ، ويمكننا أن نتسابق .

فابتسمت وقالت :

– كم أنا متشوقة إلى هذا :

والواقع أنه لم تسنح لها مناسبات كثيرة للأحاديث الخاصة مع



فقبل الدوق يدها من غير أن يتكلم ، وتحرَّكت الكونتس لتواجه إلفا ..

الدوق منذ الخطبة ، وكانت مقابلاتهما فى حفلات بلندن أقامهـا أقارب الدوق ، وهو شخصياً كان يحضر إلى قصر أبويها فى الريف أو بيتهما فى لندن للالتقاء بأقاربها .

وفى هذه المناسبة أسرع بالخروج قبل الضيوف الآخرين بمـدة طويلة ، ولم تلمه . وشعرت أنهـا تعرف عنـه الآن أقل ممـا كانت تعرفه قبل أن تلقاه على الطريق وهو ماض كى يخطب أختها كارولين :

ولم يستغرق الركوب من قصر تاورز إلى قصر سستر هاوس وقتاً طويلا ، ولمـا كانا كلاهما مجهدين بعض الشىء من مصـافحة مئات الأيدى والرد على التمنيات الطيبة لكل هذا الحشد من الناس ، لذا شعرت إلفا أن لديها القليل ليقال .

وكانت قد ذهبت قبـل ذلك مرتين إلى سستر هـاوس منـذ خطبتهما ، واعتقدت أنه مبنى من أجمل المبانى التى رأتها فى حياتها ، وأنه بالتأكيد أقدم وأحسن ذوقاً من قصر تاورز .

وعندما رأت سستر هاوس أول مرة خفق قلبها لا لجمال البنـاء فحسب ، بل لأن وراءه غابة من الأشجار التى تحميه وكأنه جوهرة ؛ وعرفت عندئذ أن مرادها الأوحد هو اكتشاف الغابة التى أحست بها وكأنها تناديها :

ولكن كان عليها أولا أن تعجب باللوحات التى فى الصالونات ، وبالكريستال والأبنوس فى إفريز السلم الذى كان من معالم البيت ، ومجموعات الصينى والزهريات الإغريقية التى تزخر بها الحجرات ؛

ومهما كان من انبهارها بهذا كله ، إلا أن إلفا وجدت عينيها تروغان نحو النافذة باستمرار لترى من خلالها الغابة تقف كالديدبان ولها مغناطيسية لم تكن تتوقعها .

وكان لابد من تقديمها لموظفى وخدم القصر ، قبل الإيواء للنوم : وبعد أن ابتسمت وصـافحت ثلاثين يداً سرها أن تقودها مـديرة البيت وتصعد السلالم ، إلى حجرة نوم من أبدع ما رأته عيناهـا ؛ وقيل لهـا : إنها حجرة نوم دوقة لنشستر جـيلا بعـد جيل ، وهى مزخرفة على الطراز الفرنسى ، وبها فراش كبير ذو أعمدة من طراز لويس الرابع عشر ، والأثاث مطعم وذو مقابض ذهبية . أما التصاوير على الجدران الزرقاء والذهبية فأذهلتها تمـاماً .

وساعدتها الخادمات فى خلع ثوب الزفاف واستراحت على مقعد طويل مرتدية قميص نوم جميل من جهازها ، إلى أن يعدوا لها حمامها .

وعندئذ بدأت إلفا تفكر فى الحديث الغريب جـداً الذى دار بينها وبين والدها وهما فى الطريق إلى الكنيسة — فما الذى كان يعنيه بقوله : إن أمها كان ينبغى أن تحدثها عن أسرار الزواج ؟ ولمـاذا حذرها من النوبات الهستيرية وأوصاها أن تدع زوجها يفعل بهـا ما يحلو له هذه الليلة ؟

ثم خطر لهـا أنه من الجائز أن زواجها من الدوق لا يترتب عليه ط أن تمسى دوقته ، وتقوم بدور المضيفة لضيوفه ، بل ربما طلب ضافة إلى هذا شيئاً آخر من زوجته .

ترى ما هو ؟

إنها لم تفكر لحظة واحدة عندما سألته : هل له أن يتزوجها بدلا من أختها كارولين ؟ أنه قد يتوقع أى علاقة حميمة بينهما . فقد كانت إلفا بريئة ساذجة تماماً ، لأن العلاقة بين الرجل والمرأة لم تناقش قط أمامها ، كما أن أحلامها الخاصة لا تتضمن كائنات بشرية ذوى مشاعر بشرية ، أجل كانت تعرف أن كارولين تسمح لإدوارد بتقبيلها ، لأن كلا منهما يحب الآخر ، وهذا صواب وجميل بسبب ما بينهما من الحب .

وفهمت إلفا فزع كارولين من الزواج بأى شخص آخر ، لأن كارولين تفزع من أن يقبلها سواه . وقالت إلفا لنفسها : ما دام الدوق لم يحاول تقبيلها حتى الآن ، فليس من المحتمل أن يغير سلوكه لمجرد أنها تلبس دبلته فى إصبعها ، ولكنها لم تكن متأكدة ، فما قاله أبوها يقلقها ويخيفها بعض الشىء ، إلا أنه لم يعد هناك متسع من الوقت الآن إلا للحمام وإلا تأخرت عن العشاء مع الدوق ، ويكون ذلك استهلالا خاطئاً لحياتها مع زوج تعلم مبلغ حرصه على دقة المواعيد : فكل شىء فى قصره على أدق نظام ، مع الحرص على الذوق السليم ووسائل الترف والراحة ، فرائحة الزهور وشمع العسل تفخم الأنف فى كل مكان .

واختارت ثوباً من أبدع أثوابها ، لونه أخضر أيضاً ، ولكنها خضرة الأوراق الجديدة للنبات اليانع ، كأوائل براعم الربيع ، وعلى

الكتفين زخارف من التل تكشف عن لون بشرتها المباين للون شعرها الذهبى البرنزى . ولم تتزين بشىء من المجوهرات اللهم إلا خاتم خطبتها ، ومع ذلك فعندما دخلت الصالون حيث كان الدوق ينتظرها ، خيل إليه أن عينيها تومضان فى ضوء الشموع كالزمرد .

وقال لها وهى تقترب منه :

— ألك فى كأس من الشمبانيا ؟ أظنك تستحقينها بعد كل هذا التعب .

— نعم من فضلك . فلم أكن أتوقع كل هذا الحشد من الناس فى حفل القران .

— كانوا مدفوعين بالفضول بلا ريب .

— أفهم هذا ، لأن التسلية قليلة فى هذه البقعة من الريف ، اللهم إلا السيرك الذى يأتى مرة فى كل عام .

فابتسم الدوق وقال :

— آمل أن نكون ضاهينا هذه المسليات !

— بالتأكيد ، وسيظلون يتحدثون عن حفلنا الشهور الستة القادمة .

— أتظنين هذا ! فى لندن سيستهلكوننا بالحديث فى تسعة أيام !

— ألأنك تزوجتنى ؟

— بل لأنى تزوجت إطلاقاً ؟

— ظننت بعض السيدات الحسناوات اللواتى أتين من لندن مندهشات بعض الشىء :

فرمقها الدوق بنظرة نافذة ، كأنه حسبها تتهكم ، ثم قال :

ـ لقد اتخذت الحيطة وأنذرت ذوات الشأن أنهن إن كن يتوقعن منى الفرار فى آخر لحظة أن أملهن سيخيب !

ـ لو أقدمت على هذا لكان عملا دراميا ، ويخيل أن أبى كان متوجساً .

ـ لقد احتاط أبوك للأمر ، بحيث إن لذت بالفرار لم أستطع أن آخذ معى ماجنوس كروفت . فلم يسلمنى عقودها إلا بعد أن وقعت فى السجل بالمقصورة !

فقهقهت إلفا ثم قالت :

ـ أبى كان دائماً ما يسميه الأسكتلنديون الرجل « الحويط » .. ولا شك أنه كان سيصعق إن أنت أخذت عقود الملكية وتركتنى وانصرفت !

وأعلن كبير الخدم أن مائدة العشاء فى انتظارهما ، وأثناء الطعام تناقشا فى عدد الموضوعات لم يكن الدوق يتوقع أنها يمكن أن تكون موضع اهتمام امرأة ، فقد تعود حينما يتعشى وحده مع امرأة أن تكون الألفاظ كلها دائرة حول الرغبة التى تتصاعد فى جسمه وجسمها ، فكل عبارة تحمل معنى مزدوجاً ، وكل برهة صمت معناها تبادل النظرات التى تقول أكثر مما تقوله الكلمات .

ولكن إلفا تحدثت إليه عن الجياد ، والاهتمامات الريفية ، وكان حديثها شائقاً بصورة داعية للدهشة .

وحدثها هو عن الأماكن التى زارها فى الخارج ، وإذا به يجدها تصغى باهتمام يتملق غروره ، بل وتطرح أسئلة ذكية كان يسره أن يجيب عنها بمعلومات غزيرة .

ووجد على الجملة أنه استمتع بصحبتها على نحو لم يكن يتوقعه : وفى ختام العشاء تبين أنه بدلا من التحدث إلى امرأة صارت زوجته لتوها ، ربما كان فى واقع الأمر يتناول عشاءه مع هارى شلدون ، متنقلين من موضوع إلى موضوع ، وكل منها أشد جاذبية واستغراقاً :

وبعد العشاء عاد الدوق وإلفا مخترقين الدهليز نحو الصالون الذى كانا قد تقابلا فيه قبل العشاء ، ولما بلغاه قالت :

ـ هل سنركب الجياد غداً صباحاً ؟

ـ إن شئت ، ولم تكونى مجهدة .

ـ طبعاً لن أكون مجهدة ، ولكنى أرى من الحكمة أن نأوى إلى الفراش الآن ، فقد كان يومنا طويلا ...

ـ وهذا نفس شعورى .

وترددت إلفا ، أتقول له : طابت ليلتك ، وإذا بالدوق يتركها متجهاً إلى قنينة البراندى فوق منضدة جانبية . وقال لها :

ـ لن أغيب طويلا ، ولن ألبث حتى ألحق بك .

فرمقته إلفا بنظرة دهشة ، ثم أسرعت عبر البهو وصعدت السلم إلى حجرتها ، وهناك كانت خادمة فى انتظارها فساعدتها على ارتداء

قميص نوم أنيق من جهازها . وكانت إلفا تفكر فيما قاله لها، وقالت لها الخادمة بعد أن استخرجت دبابيس شعرها :

– هل أمشط لك شعرك يا صاحبة الفخامة ؟

– ليس الليلة . شكراً لك :

وتوقعت منها الخادم أن تدخل فراشها ، وفعلا تسلقت الحشايا للطرية ولاحظت أن الملاءات وأكياس المخدات ذات حواف من المخرمات :

وأطفأت الخادمة جميع الشموع ، إلا تلك التى فى شمعدان بجوار الفراش ، ثم انحنت وهى تقول بلهجة ذات مغزى :

– طابت ليلتك يا صاحبة الفخامة ، وأتمنى لك ليلة زفاف سعيدة جداً .

وأغلقت الباب وراءها ، فشعرت إلفا بالخوف ، وكانت قد لاحظت وهى تبدل ثيابها أن للحجرة باباً يوصل إلى حجرة نوم الدوق أما على الجانب الآخر من الحجرة فمقصورة للزينة .

ومرة أخرى توارد على ذهنها كل ما قاله لها أبوها ، وأيضاً قول الدوق :

– لن أغيب طويلا . لن ألبث حتى ألحق بك .

فهل سيأتى إليها ليقول لها : طابت ليلتك . أم هو ينوى البقاء معها ؟

وكانت إلفا تعرف أن المتزوجين ينامان فى فراش واحد معاً : ولكن لم يخطر ببالها قط أن الدوق يمكن أن ينام معها ، فهو لم يتزوجها إلا ليحصل على ماجنوس كروفت بأفدنتها عشرة الآلاف التى كان والده قد قامر بها وخسرها .

ثم إن أباها ألمح إليها أكثر من مرة أن اهتمامات الدوق كثيرة بنساء شتى ، وقد عرفت عندما رأت الكونتس والشنجهام ما هو نوع هذا الاهتمام ، ولم يقع ذلك منها موقع الدهشة لأنها وجدت الكونتس رائعة الجمال . ثم إنها لا تلوم الدوق ، فما دام يريد تلك الضيعة فلابد له من دفع الثمن ، وهو الزواج منها .

ولكن إلفا اعتقدت أن ذلك الزواج لا ينطوى على لمسها ، إن كان اللمس ما يقتضيه عقد الزواج عادة ، ومجرد التفكير فى ذلك خطأ كبير ، لأنهما غير متحابين ، ولذا فاللمس شىء لا يمكن أبداً أن تسمح به .

وسمعت وقع خطوات تمر أمام بابها ، واعتقدت أن الدوق فى طريقه إلى فراشه ، وسيخلع ثيابه فى حجرته ثم يأتى من الباب الموصل بين حجرتيهما ، وتلفتت حولها لا تدرى أين تختبئ منه .

فى وسعها أن تحبو تحت السرير ، ولكن ذلك الوضع مهين جداً إن وجدها هناك . وبدون تفكير نزلت من الفراش إلى الأرض ووقفت مترددة ، تتلفت حولها .

فى هذا الطابق عشرات الحجرات الأخرى ، ولكن إن وجدها

الخدم فى إحداها سيكون هذا مثار لغط . وسرعان ما ينتقل اللغط إلى المحيط الخـارجى ، ومن ثم ينتقـل الخبر كله بسرعة إلى قصر تاورز ، وراحت تقدح ذهنها :

ــ ماذا عساى أصنع ؟ ماذا عساى أصنع ؟

لو كان أمامها متسع من الوقت لتسنى لها أن تتحدث إلى الدوق وتشرح له مشاعرها ، ولكن ليس الليلة ، فهما متعبان ، ولم يتسع لهما الوقت كى تفكر وتحاول أن تفهم ما قاله أبوها لها .

الستائر ! ستختفى وراءها ، ثم خطرت لها فكرة مفاجئة : فى الركن الأقصى للحجرة صوان ملابس كبير بديع الصنع ، لا يتسع لكل أثوابها ، فهو فى الغالب موضوع للزينة أكثر منه للاستعمال . وقمته بها نقوش ضخمة تمثل ملائكة وكيوبيد ، ويعلوها تاج ذهبى . وقدرت من موضعها أن هذه النقوش يبلغ ارتفاعها قدماً ونصف قدم فوق قمة خزانة الصوان نفسها .

وسارت إليه ، ووقفت على كرسى ، وبنفس الخفة التى تمتطى بها صهوة جوادها رفعت نفسها ، وكأنما تطير بجناحين ، فوق قمة خزانة الصوان ، ولصغر حجمها استطاعت أن تحشر نفسها داخل إطار التماثيل المنحوتة ، واختفت بذلك عن الأنظار ، وتمنت لو كانت جاءت معها بوسادة ، ولكنها الآن ليست معنية براحتها بل بالاختفاء . وخفق قلبها بعنف عندما انفتح الباب الموصل بين حجرتى النوم .

ولم تجسر على رفع بصرها خوفاً من أن تكشف حركتها عن مكانها .

ولكنها شعرت أن الدوق دخل الحجرة ، وسمعته يغلق الباب وراءه : ومشى نحو الفراش . ثم عرفت أنه وقف هناك متحيراً لأنه وجـده خالياً .

وانتظرت أن ينظر حوله ثم يغادر الحجرة ، ولكنه بدلا من هذا اندس فى الفراش . وأدركت أنه ينتظر عودتها من الحمام ، وتساءلت إلى متى ياترى سينتظرها .

ولم يكن أمامها ما تصنعه هى أيضاً سوى الانتظار ، وضمت كفيها ووضعت خدها عليهما لمزيد من الراحة . وقالت لنفسها بثقة :

ــ لن يلبث أن ينصرف بعد دقيقة أو اثنتين ...

وأغمضت عينيها ...

* * *

وراح يحدق فيها بدهشة ، وساد الصمت لحظة ، ثم قال :
ـــ ماذا بالله تصنعين هناك ؟

الفصل الخامس

كانت إلفا تجرى وشخص ما يطاردها ، وكاد يمسك بها عندما أطلقت صيحة خوف صغيرة ومدت ذراعيها إلى أعلى لتحمى نفسها.: وأحست ألماً حاداً ؟ واستيقظت :

ولبرهة لم تستطع أن تدرى أين هى ، وجلست ، ووجدت نفسها تنظر إلى أسفل والأرض تحتها بمسافة طويلة .

وحملقت فى الباب ، ثم فطنت إلى أن الدوق رفع نفسه فى الفراش، واتكأ على كوعه ، وراح يحدق فيها بدهشة . وساد الصمت لحظة ، ثم قال :

ـ ماذا بالله تصنعين هناك ؟

ولأن إلفا كانت لا تزال نائمة ، قالت له الحقيقة :

ـ كنت ... كنت ... خائفة .

ـ منى ؟

ـ نعم !

فجلس الدوق على مسافة أبعد قليلا ليحدق بدهشة فى وجه زوجته المطل عليه من النقوش التى فوق خزانة الصوان . وكان ضوء الشمعة ينعكس لا على الأشكال المذهبة فحسب ، بل على شعر إلفا فتوهج فى الظلام من خلفها . وقال الدوق بعد لحظة :

ـ لم يخطر ببالى أنك ستخافين منى .

– السبب ما قاله لى بابا ... عندما كنا ... ذاهبين إلى الكنيسة :

– وماذا قال ؟

– قال إن زوجى له حقوق ... وأياً كان ما تصنعه الليلة ... يجب على أن أتقبله .

– وهل فهمت ما كان يقصد بذلك ؟

– لا . ولكنه قال إنه كان يجب على ماما أن تشرح لى ... ماهو الزواج .

وزادت دهشة الدوق ، ولم يخطر له أنه سيتزوج امرأة بهذا الجهل التام . فالنساء اللواتى فى حياته كن كلهن من المحنكات وذوات الخبرة العظيمة فى فنون ممارسة الحب. وأدرك كم هو غبى لأنه لم يحدس مبلغ اختلاف إلفا عنهن ، وكان يجب عليه أن يتحدث إليها باستفاضة قبل أن يتزوجها .

ولما طال صمته قالت إلفا بصوت متردد :

– وظننت أنى ... إن اختبأت منك ... الليلة ... ربما تكلمت فى فرصة أخرى .

– فكرة طيبة . فلم تتسع أمامنا الفرصة لحديث حتى الآن .

– لم يخطر ببالى ... عندما تزوجتك ... أنك ستريد منى ... إلا أن أكون المضيفة فى بيتك ... وزوجتك فى المجتمعات ! لأن بابا قال لى إن اهتماماتك النسائية متعددة وفى اتجاهات أخرى ، وأنا أعلم أنك عشيق الكونتس والشنجهام الحسناء !

– لا أصدق أن والدك قال لك هذا .

– إنه لم يذكر اسمها ، ولكنى سمعت تلميحات من أشخاص آخرين: ولما رأيتها اليوم تيقنت من ذلك ... وفهمت شعورك نحوها !

فقطب الدوق جبينه وقال :

– هذا شىء لاينبغى أن نتحدث عنه :

– ولم لا .. لم يكن بيننا حب ... ولذلك لم أتوقع أن تلمسنى .. أو تأتى لحجرة نومى .

– كأنى بك تكرهين منى هذا !

– أنا لا أحب أن يلمسنى الناس ... ولا يتبادل القبلات إلا العشاق !

– من السخف أن نواصل النقاش على هذا النحو ، والأفضل أن تنزلى ، ولن أحاول لمسك إذا نزلت .

– قم من فراشك إن سمحت وأعطنى ظهرك حتى لاترى ساقى العاريتين وأنا أنزل !

فأطاعها ، ونزلت وتحركت بسرعة إلى الفراش واندست فيه ، واستدار الدوق .

وبدت إلفا فى الفراش الضخم صغيرة جداً وأشبه بالجنية الصغيرة فعلا ، وهى بشعرها المتوهج على كتفيها أميرة من أميرات قصص الجن تسللت من الغابة إلى المساكن البشرية .

واتجه نحوها وجلس فى كرسى كان قريباً من الفراش وقال لها :

– أنا واثق أنك الآن أوفر راحة من هناك :

– من شدة خوفى وتعبى ولم أكن أفكر فى راحتى ، ونمت بمجرد دخولك الحجرة :

فابتسم الدوق وقال :

– أنا بالقطع لم أتوقع أن أجد عروسى على هذا الارتفاع .

فضحكت إلفا وقالت :

– كانت بلاهة منى أن أشعر بكل هذا الخوف .

– وماذا تقترحين أن نصنع ؟

وأطلت من عينيها نظرة حذر وقالت :

– أريد أن أصنع ماهو صواب ... وأكون زوجة صالحة ، ولكن هذا يتوقف على المقصود بالزوجة الصالحة بالضبط .

وفكر أن يخبرها بالحقيقة ، ولكنه غير رأيه وقال :

– أقترح أن نعرف بعضنا بعضاً أفضل مما نحن الآن قبل أن ندخل فى أى تفصيلات حميمة لما قد يقتضيه زواجنا .

– هل معنى هذا أنك ... سوف لا تلمسنى .

– ليس قبل أن تطلبى أنت منى ذلك .

فصعدت تنهيدة ارتياح وقالت :

– هذا بالضبط ما أريده ... وبما أنى معجبة بك كثيراً جداً وأستمتع بالحديث معك ، وأعتقد أننا سنكون سعيدين معاً :

– هذا ما أتمناه : وإذا خفت من أى شىء فى المستقبل ، ولا سيما منى ، أقترح أن تخبرينى بذلك :

– أعدك بذلك . وأنا آسفة أنى لم أفعل ذلك :

فنهض الدوق قائماً على قدميه وقال :

– أعتقد أنك ينبغى أن تستأنفى نومك ، ثم أنا أيضاً أشعر بتعب شـــديد .

– هل نركب الخيل غداً صباحاً ؟

– طبعاً ، ما لم تتأخرى فى النوم .

– لن أفعل هذا ، وتوجد هنا أشياء كثيرة يجب أن أكتشفها ، ولا سيما الغابة :

– أنسيت أننـــا يجب أن نرحـــل إلى لا يسستر شـــاير إما غـــداً أو بعد غد ؟

– أظننا لابد أن نذهب .

– وليس من الضرورى أن نمكث هناك طويلا وبعد عودتنا سأريك الغابة التى أحببتها منذ كنت غلاماً صغيراً .

– إنها طبعاً جزء منك . وأين ألا فى الغابة يشعر سلفانوس أنه فى بيته ؟

فضحك الدوق وقال :

– طابت ليلتك ياإلفا !

– طابت ليلتك ياسلفانوس !

وأطفأ الدوق الشموع ، وقبل أن يطفئ الشمعة الأخيرة لاحظ أن عينيها مغلقتان . وسمعها تتمتم :

— شكراً لك !

وتحسس طريقه فى الظلام إلى الباب المفضى إلى حجرة نومه :

* * *

وبعد يومين شعرت إلفا بأنها تنتزع انتزاعاً من شستر هاوس ، بعد أن جالت جولة سريعة فى الغابة بعد ظهر اليوم السابق ، بينما الدوق مشغول مع سكرتيره ، فوجدت هذه الغابة ساحرة كما توقعتها ، ولها سحر خاص يجعلها مختلفة عن أى غابة أخرى عرفتها من قبل . ولكن الوقت لم يتسع لاستكشافها بالكامل ، ولكنها عرفت فقط أنها تتذبذب فيها بمغناطيسية أشد إلحاحاً عليها من أى شىء عرفته من قبل ، وهناك أيضاً سمعت الموسيقى التى كانت تسمعها دائماً فى الغابة ، وهذه الموسيقى جزء من الرياح التى تمرق بين الأوراق والأشجار وتصاحب النمو .

وقالت إلفا لنفسها وهى تجرى عائدة إلى القصر :

— أتمنى أنه لا يتعين علينا الرحيل غداً .

ولحسن الحظ أن الدوق لم يفطن لخروجها ، وأسعدها ألا تضطر للبوح له أين كانت ، فقد يسألها عن مشاعرها ، وهى تحس أن أى كلام سيكون من المستحيل عليه فهمه ، وستعد الأيام لحين عودتها .

وعلى العشاء تحدثا عن أمور كثيرة ، بما فيها الميثولوجيا ، وهى موضوع شعرت بأنه يقحمه عمداً فى الحديث لأنه يحسبه يروقها .

واكتشفت أنه يعرف عن آلهة وآلهات الإغريق والرومان أكثر مما كانت تتوقع ، وتجادلا حول تأثير الإمبراطوريتين على الحضارات التالية ، إلى أن حان وقت النوم .

وفى الصباح استقلا عربة خفيفة يجرها جوادان أصيلان أسودان ، وأسعدها أنه قال لها إنه أرسل جوادها « سوالو » مع جياده لتسبقهم إلى لايسستر شاير للتسابق ، وهتفت فى جذل :

— سأحاول أن أغلبك ، فسوالو أسرع من كل جياد أبى .

— وهناك سيلحق بنا هارى ، وهو فارس ممتاز .

وكان هارى لبقاً ، فلم يلق أى أسئلة عن علاقتهما الحميمة ، ولكنه كان فطناً فلاحظ أن إلفا تعامل زوجها ببساطة الطفلة ، ولكنه لم يلاحظ أى ملاطفات حميمة ، ولكن علاقتها بسلفانوس أقرب إلى العلاقة الأخوية ، وتحير ولكنه لم يقل شيئاً .

وأقام هارى فى كوخ الصيد معهما أسبوعاً ، وكان كل يوم منها ممتعاً لإلفا بصورة لم تعهدها من قبل ، فالوقت كله مخصص لركوب الخيل ، والتسابق ، والقنص . ومتى انقضى النهار نامت إلفا نوماً عميقاً . وفى آخر يوم قال هارى شيئاً أقلقها . وكان الدوق قد تركهما وحدهما فى مكتبه وذهب لمقابلة أحد موظفى الدائرة . وفجأة فطنت إلى أنه يرقبها ، فسألته :

— ماذا يدور بذهنك ؟ هل ارتكبت خطأ ؟

— بالعكس ، بل كنت أفكر أنك أصلح مايكون لسلفانوس :

– من أى وجه ؟

– كزوجة بالطبع ! ألا تدركين ذلك أنت شخصياً ؟

– لست أعرف بالضبط أى نوع من الزوجات كان سلفانوس يريد ، وخصوصاً أننى كنت جزءاً من صفقة تضم عشرة آلاف فدان !

– أعرف هذا ، ولكنك غيرت سلفانوس وتفكيره عن الدوقة التى يريدها مجرد دمية لا شخصية لها .

– أوه ، أنا على الأقل لست هكذا !

– إطلاقاً ، بل أنت نوع الزوجـة التى كنت أنتقيها له لو كلفنى بذلك :

– شكراً لك ! إنك تتملقنى :

– بل أقول الحقيقة ، إن سلفانوس بسبب وسامته الشديدة ، ولأنه دوق أفسدته النساء بتهالكهن عليه ، ولكنه بدأ يملهن .

– سيؤسفنى جداً أن يملنى ، ولكن علاقتنا مختلفة جداً :

– هذاما خطر لى ، وسيجد حياته معك مختلفة جداً عن ماضيه :

– كيف تجزم بهذا ؟ ثم عندما ينتهى شهر عسلنا ونعود إلى الحضارة ، ستكون تلك الكونتس فى انتظاره ، وقد أخبرنى أبى أن له اهتماماً خاصاً قبل زواجنا ، وعندما رأيتها فى يوم زفافنا فهمت لماذا يعشق امرأة بهذا الجمال .

– ألا تبالين بعلاقته بإيزوبل ؟

وفتح عينيه على سعتهما من فرط الدهشة :

– ولماذا أبالى بها ؟ طبعاً سأفتقده إذا تركنى وحدى مدة طويلة جداً وليس معى من أتحدث إليه وأضحك معه ، ولكنى لا أفهم لماذا تحول علاقته بالكونتس دون استمتاعى بصحبته أيضاً كما نفعل الآن .

فحدق فيها هارى غير مصدق ، ثم قال :

– ولكنك طبعاً تتبينين أنه ينبغى ألا يقضى معظم وقته مع إيزوبل بعد زواجه بك ، وسوف تناضلين طبعاً للحيلولة دون ذلك ؟

ونظرت إليه إلفا بدهشة وقالت :

– ولماذا أناضل مادامت تسعده ، فبأى حق أفسد متعته بها ؟..

وأفحم هارى وسكت ، فاستطردت :

– طبعاً يختلف الوضع لو حدث هذا لكارولين ، لأنها تحب إدوارد كثيراً جداً ، وأعتقد أنه يقتلها لو اهتم بامرأة أخرى ، أما سلفانوس فلا يحبنى ، ولا أنا أحبه ، فنحن مجرد أصدقاء ، وكل منا يريد سعادة الآخر ومتعته .

– يبدو لى هذا غير طبيعى على الإطلاق .

فى هذه اللحظة عاد الدوق وانقطع الحديث .

* * *

وغادرا استراحة الصيد ، وبدلا من الذهاب مباشرة إلى قصر شستر هاوس كما كانت تريد إلفا ، قرر الدوق البقاء فى لندن ليلة واحدة ، فقد تلقى دعوة من الدوقة ديفو نشاير لحضور حفل عيد

ميلاد أقامته فى قصر ديفونشاير لزوجها الدوق . وقالت الدوقة فى دعوتها :

« إنها حفلة مفاجئات دعوت إليها أقرب أصدقاء زوجى ليجعلوا ليلته سعيدة » .

وقال هارى : « وأنا أيضاً مدعو ولا أظننا نستطيع الرفض » :

فقال الدوق :

ـ بالطبع لا . وستستمتع إلفا بقصر ديفو نشاير هاوس وستكون فرصة لتقديمها لبعض أصدقائى الذين لم تتح لهم فرصة حضور الزفاف ، فما رأيك يا إلفا ؟

ـ أتمنى ألا يصابوا بخيبة أمل ، وأتمنى أن يكون عندى ثوب باهر لهذه المناسبة .

ـ أفضــل أن تتزينى بزمرد العــائلة ، وفى هــذه الحالة لن تلتفت النســاء لثوبك ، بل لمجوهراتك ويصرفن بأسـنانهن لأنهن لا يملكن ما يضاهيها !

وكانت الكثيرات من صديقاته طلبن استعارة بعضها ، ولكنه كان يرفض دائماً تكريماً لأمه التى كانت تتزين بها ، فمن الإهانة لذكراها أن تلبسها عشيقاته .

وقال هارى :

ـ والبسى التاج أيضاً فتخطفين كل الأضواء من المحتفى به !

ولكنها عندما فحصت طقم الزمرد عند وصولهم إلى شستر هاوس

فى لندن فى ميدان بيركلى ، لم تجدتاجاً رهيباً فحسب ، بل أيضاً عصابة مرصعة بالزمرد تحف به الألماسات ، وتولت الوصيفة وضعها على مؤخرة رأسها فوق خصلات شعرها المتهدلة ، وتلألأت القلادة فوق جيدها الناصع البياض ، فأدركت أن جميع الحاضرات سيصرفن بأسنانهن حسداً لها . ولكن ذلك لم يكن يعنيها ، فكل ما يعنيها أن تشرف الدوق أمام الناس فى المجتمع الراقى ، ثم إن هذا الزمرد كان يجعلها على نحو ما تفكر فى الغابة ..

وكانت المسافة التى قطعتها العربة قصيرة جداً من ميدان بيركلى إلى بوابات قصر ديفو نشاير ذات الأطراف المذهبة فى بيكاديلى ، الذى احتشد به جمع من أقرب أصدقاء الدوق ، وإذا بالحديقة مزينة بعقود الأنوار ، وإذا بالفوانيس الصينية تتدلى من الأشجار ، وهناك جرى تقديم إلفا إلى صديق بعد الآخر من أصدقاء سلفانوس .

وفى البداية نظروا إليها بفضول ، ثم أثنى عليها الرجال ثناء مستطاباً تمنت أن يقدره زوجها ، وكان العشاء لذيذاً واستغرق مدة طويلة ، ولما انتهى وصل أشخاص كثيرون آخرون ، وبدأت الفرقة الموسيقية العزف فى قاعة الرقص المفتوحة على الحديقة .

ورقصت إلفا للمرة الأولى مع زوجها الذى قال لها :

ـ أنا أتحاشى الرقص بقدر الإمكان ، ولكن هذه رقصتك الأولى ، فكان لابد لى أن أراقصك .

ـ أتمنى أن أكون أحسنت الرقص :

وابتسم الدوق : فقد كانت خفيفة كالريشة ، فأحس أنه يراقص حورية .. وطلب هارى الرقصة التالية ؛ ثم توالى الراقصون تباعاً حتى لم تعد إلفا تحصيهم . أما الدوق فبعد أن أدى واجبه بالرقص مع المضيفة ذهب إلى حجرة لعب الورق ، حيث كسب مبلغاً طائلا قبل أن يرمى خصمه الورق . وقال باستياء :

— يقولون تعيس الحظ فى اللعب سعيد الحظ فى الحب. ولكنك سعيد فى الاثنين !

ودس الدوق أرباحه فى جيبه ، وتذكر أنه آن الأوان للبحث عن إلفا .

ولم يجدها فى قاعة الرقص ، فنزل إلى الحديقة ، التى كانت رومانسية جداً بلا شك بتلك الشموع المضاءة على حوافى ممراتها ، وبفوانيسها الصينية التى تلقى أضواء ذهبية على الأزواج الجالسين على المقاعد تحت الأغصان أو فى تعريشات متوارية بمهارة عن الأنظار .

ومشى الدوق متلمساً أثراً لإلفا ، وهو يلوم نفسه لأنه لم يقل لها إنه من الغير المناسب لامرأة حديثة عهد بالزواج أن تختفى بين الظلال ، وبدأ يعتقد أنه مخطئ ، وأنها لابد موجودة فى قاعة الرقص عندما سمع صوتها وتبين أنه صادر من وراء بعض الشجيرات المزهرة التى تحجبها الآن عن نظره ، فتسمر فى مكانه ، وسمع زوجته تقول :

— لا من فضلك ، لا ينبغى أن تقول لى مثل هذا الكلام !

— ولم لا مادمت أعتقد أنك أفتن من رأيت منذ سنوات ، بل

على الإطلاق ؟ وقد وقعت فى حبك بجنون يادوقتى الصغيرة المعبودة .

— ما أسخف هـذا ... ومن فضلك لابد أن أعود الآن إلى قاعة الرقص .

— سأتركك تعودين بشرط واحد !

— وما هو ؟

— أن تدعينى أقبلك أولا !

— كلا ! كلا بالطبع !

وتأكد الدوق الآن أن الرجل من أصدقائه . وهو اللورد هامبتون ، وهو رجل جذاب جداً ، ومن أكثر عزاب لندن الذين تتهافت عليهم النساء ، ومعروف بأنه عاشق لحوح ، فهو آخر من ينبغى أن ينفرد بإلفا عند ظهورها لأول مرة فى المجتمع . وسمع اللورد يقول :

— كيف ترفضيننى هكذا ؟ اعلمى أن القبلة مثيرة وممتعة جداً بين شخصين يجتذب كل منهما الآخر ، وأنت تجتذبيننى إلى أقصى حد ؛

— أنا لا أرغب فى أن تقبلنى ، وأريد العودة إلى قاعة الرقص ؛

— أنت قاسية جداً . قد لا تعنى لك القبلة شيئاً ، ولكنها تعنى لى الشىء الكثير .

— لا أعتقد أن القبلة لا تعنى شيئاً لى ، وأنا متأكدة عندما يقبلنى من أرغب فى قبلته ستكون القبلة شيئاً رائعاً . أتذكره دائماً ..

— أتعنين أن أحداً لم يقبلك من قبل ؟ لست أفهمك .

فقالت إلفا ببساطة :



وتأكد الدوق الآن أن الرجل من أصدقائه ، وهو اللورد هامبتون ، وهو رجل جذاب جدا ، ومن أكثر عزاب لندن الذين تتهافت عليهم النساء ..

— لم يسبق لى أن قبلنى أحد ، ولذا لا أريد أن يكون أول من يقبلنى شخص لا أعرفه ولم أقابله إلا منذ دقائق معدودة !

وأدرك الدوق على الفور أن هذا الحديث لا يمكن أن يستمر : ولما كان لا رغبة له فى أن يتبين جورج هامبتون أنه سمع ما قيل . لذا قال وهو يدنو منهما :

— أوه . أأنت هنا ياإلفا ، كنت أبحث عنك لأن أمير ويلز وصل الآن وأريدك أن تقابليه .

فوثبت إلفا بلهفة وهتفت :

— سآتى معك ياسلفانوس فوراً !

— هالو يا جورج ! الدوقة كانت تسأل عنك منذ دقيقة أو دقيقتين، يحسن أن تمضى إليها .

فالتفت هامبتون إلى إلفا ورفع يدها بفتور إلى شفتيه وهو يقول :

— شكراً لك على رقصة ممتعة جداً :

ومضى مسرعاً نحو القصر . ولم يقل الدوق شيئاً . ووضع يده تحت كوع إلفا ومشى معها فى الاتجاه المضاد إلى أن وصلا إلى قسم غير مضاء من الحديقة ، وعندئذ رفعت إلفا عينيها إلى الدوق بتوجس ودهشة خشية أن يكون غاضباً لنزولها إلى الحديقة مع اللورد هامبتون، والواقع أنه ألح عليها بالنزول إلى الحديقة . ولم تتنبه إلا بعد فوات الأوان أنهما فى هذه العريشة المنعزلة : ولما كان طويلاً جداً وعريضاً، فقد أحست أنه يمنعها من تركه كما كانت تريد ، وسرها أن الدوق ظهر

فى هذه اللحظة . ولكنها تراه متجهماً جداً وذقنه بارزاً فى تحد عدوانى .
وظلا يمشيان إلى أن وصلا إلى سور الحديقة المرتفع جداً . وهناك
ترامت إلى سمع إلفا نغمات الفالس من بعيد ، ورفعت بصرها إلى الدوق
الذى سألها :

– كيف سمحت لنفسك أن تقولى لجورج هامبتون أو أى شخص
سواه أنه لم يسبق تقبيلك ؟

– أسمعت ؟

– نعم سمعت . وهذا يجعلنى فى عين الناس أبله ، لذلك سأحول
دون تكرارك هذا القول !

ووضع ذراعيه حولها وجذبها إليه بخشونة . ثم رفع ذقنها وأطبقت
شفتاه على شفتيها ، فتبينت مبلغ غضبه .

ولما كانت لم تقبل من قبل . لم يكن فمها مهيأ لتلقى فمه وهو بهذه
الصلابة والإيلام . وأرادت أن تقاومه . ولكن ذراعه الأخرى كانت
تحيط بخصرها . ولم يلبث الدوق أن شعر بنعومة ونضارة شفتيها ،
كأنهما شىء غير محسوس لشدة شفافيته . فتغيرت قبلته إلى الرقة
واللطف ، كأنه يمتص رحيق زهرة . وشعر بإلفا ترتجف . وفطنت
إلى أن الذبذبات التى سبق أن أحستها صادرة منه فى استراحة الصيد
تلتحم مع الذبذبات الصادرة منها . ووجدت نشوة لم يسبق لها أن
وجدتها إلا فى خيالاتها وهى تحلم فى الغابة .

وشدد الدوق من ضمها إليه . وغدا فمه أشد إصراراً وإلحاحاً ،

فخيل إلى إلفا أن شيئاً عجيباً جداً يحدث فى داخلها ، وكأنه موجة امتدت
من أحشائها إلى ثدييها . وتعاظمت هذه الحرارة الداخلية حتى صارت
نشوة وملأت سمعها موسيقى الغابة . وطفرت الموجة الحارة من حلقها
إلى شفتيها . وهذا شىء مختلف تماماً عن أى شىء سبق أن تخيلته .
وعندئذ رفع الدوق رأسه وأخذ نفساً عميقاً . ثم أطبق على شفتيها
يقبلهما ثانية ، تقبيلا عميقاً بطيئاً طويلا . خيل إلى إلفا أنه صادر عن
النجوم من فوقها ومن الغابة ومن الأشجار التى تحتفظ داخلها بأسرارها ،
وأحست كيانها كله يستجيب . لا لشفتى الدوق فحسب . بل لشىء
أعمق نابع من روحه .

ولما شعرت بأنهما لم يعودا شخصين . بل صارا شخصاً واحداً ،
أبطلت هذا السحر ضحكة من الدوق . ورفع رأسه . وقد عادا إلى
الأرض ، وكان من المستحيل على إلفا أن تتكلم أو تصنع أى شىء ،
سوى التحديق فى الدوق . كأنه ليس شخصاً حقيقياً بل ينتمى
إلى عالم آخر حملها إليه ، وكان عذاباً لها أن تبارحه . وكأنما فهم مشاعرها
فأطل فى عينيها برهة طويلة . قبل أن يتناول يدها بيده ، ومشى معها
ببطء عائدين نحو القصر .

ولما وصلا إلى الأضواء ، وتراءى لهما الناس الراقصون فى قاعة
الرقص قالت إلفا بصوت بدا وكأنه ليس صوتها :

– أود .. أن أذهب ... إلى البيت !

– طبعاً ... استردى عباءتك ، وسأنتظرك فى البهو .

وعادا إلى القصر ، لا عن طريق قاعة الرقص ، بل من باب جانبى ، وصعدت إلفا السلالم إلى حجرة النوم التى تركت فيها عباءتها . وكانت هناك حجرتا نوم ، تفضى إحداهما إلى الأخرى . فاتجهت إلفا إلى الحجرة البعيدة حيث تركت عباءتها . ولكثرة عباءات المدعوات احتاجت الخادمة إلى بعض الوقت لتجد العباءة الخضراء التى تتناسب مع ثوبها ولها حافة من السمور . وأخيراً وجدتها ووضعتها على كتفى إلفا التى شكرتها ومشت صوب الحجرة التالية . وإذا بها تسمع صوتاً يقول :

– ما رأيك فى دوقة سلفانوس ؟

فجمدت فى مكانها وسمعت امرأة تجيب قائلة :

– هى لا تهمنى . سلفانوس ملكى كما تعلمين !

– ولكنه متزوج الآن يا إيزوبل !

– وما أهمية هذا ؟ معظم الرجال يتزوجون إن عاجلا أو آجلا ، والمهم حقاً هو أين يتركون قلوبهم ، وقلبه يا أودرى تحت يدى وليس فى نيتى أن أفرط فيه !

– أنت شديدة الثقة بنفسك يا إيزوبل !

– طبعاً ! وإن كنت قلقة على سلفانوس فاعلمى أنه رتب بالفعل موعداً لزيارتى غداً بعد الظهر !

– ظننته فى شهر العسل !

فضحكت إيزوبل وقالت :

– شهر عسل أو غيره ، لا أحد يعرف كيف يقبل مثل سلفانوس . وسأحصل غداً بعد الظهر على قبلاته ، بل وعلى أكثر منها بكثير قبل أن يغادرنى . فقد أوحشنى كثيراً !

وكتمت إلفا صيحة عصبية ، وعبرت الحجرة لتغادرها من باب جانبى إلى الممر ، وكانت فى منتصف السلم عندما رأت الدوق ينتظرها فى البهو الرخامى الضخم ، وذهبت إلى جواره ولكنها لم تتكلم ، فوضع ذراعه تحت ذراعها وقادها إلى الباب الأمامى حيث تنتظرهما عربتهما . وركبا ، وانطلقت بهما العربة إلى ميدان بيرمكى . وهناك حاول الدوق أن يتناول يدها لتنزل . ولكنها قاومته . فنظر إليها متسائلا ، فقالت :

– عندما قبلتنى ... كان كل شىء كاملا .. ورائعاً جداً .. أروع من كل ما تخيلت أن تكون القبلة ... ولكنى عندما صعدت لأحضر عباءتى ، سمعت الكونتس والشنجهام تخبر سيدة أخرى أنك رتبت موعداً لزيارتها غداً ، كى تقبلها ! وأنا لا أحب أن أشرب من ماعون شرب منه غيرى !

وقبل أن يجيب فتح الحاجب باب العربة ، ووثبت منها إلفا كالحيوان الصغير الرشيق ، وجرت صاعدة السلالم ، ولمحها الدوق تختفى بين الظلال .

* * *

الفصل السادس

استيقظت إلفا والوصيفة تجذب الستائر فى حجرة نومها، ولكن قبل أن تبدأ فى التفكير فيما حدث الليلة الماضية ، قالت المرأة :

– صاحب الفخامة يهدى تحياته ، ويطلب من فخامتك أن تكونى مستعدة فى الحادية عشرة للمغادرة إلى الريف .

فأجفلت إلفا وجلست فى فراشها وقالت :

– أقلت إلى الريف ؟

– نعم يا صاحبة الفخامة . وإفطارك سيصعد إليك الآن .

واتجهت الوصيفة إلى الباب وهى تتكلم ، وأدخلت صينية فوقها إفطار إلفا ووضعتها بجوار الفراش ثم شرعت ترتب الحجرة .

إذن فهما ذاهبان إلى الريف ، أى أن الدوق لن يزور الكونتس والشنجهام حسب الاتفاق . وتناولت إفطارها على عجل ثم أسرعت بارتداء ملابسها قبل الحادية عشرة بدقائق ونزلت لتجد الدوق فى البهو يصدر تعليماته إلى الخدم . ونظر إليها عندما وصلت إلى درجة السلم الأخيرة . ونظرت هى إليه متسائلة ، فتقابلت عيونهما ولكن أحداً منهما لم يتكلم . ورأت إلفا الخيل منتظرة أمام الباب الكبير ، فعبرت البهو . وبعد لحظة كانت جالسة فى العربة الصغيرة التى انطلقت بهما فى الشمس الساطعة ، ورمقته من تحت أهدابها فوجدته مركزاً اهتمامه على الخيل ، وتساءلت أهو غاضب منها بسبب ما قالته

فى الليلة الماضية : وعاودها الإحساس بنشوة قبلته وعلمت أنه لن يفسد أكمل لحظة عرفتها فى حياتها كلها .

ولم تستطع أن تفسد لنفسها ما حدث لها . ولكنها عرفت فقط أن الدوق قد حملها إلى حلم صار فجأة حقيقة محسوسة فى كل جسمها مقدسة وحميمة لن تستطيع أبداً أن تشرك فيها أى إنسان :

وواصل القيادة من غير أن يتكلما ، وأحست إلفا بطريقة غريبة أنهما يتصلان فيما بينهما من غير حاجة إلى كلمات . وعرفت أن الذبذبات الصادرة عن الدوق لم تزل تلامس ذبذباتها كما حدث فى الليلة الماضية ، وأنهما متقاربان بطريقة سحرية لا تعتقد أنها من الممكن أن تشرحها لكائن بشرى آخر .

وبلغا قصر شستر هاوس قبل الساعة الأولى بالضبط . وخيل إليها أن القصر يبدو أجمل مما تتذكره . ومرة أخرى خيل إليها أن الغابة التى وراءه تناديها فلا تقدر على العصيان . واستقبلهما كبير الخدم فى البهو ، وفيما هى تستدير لتصعد السلم سمعت الدوق يقول :

– أنا وصاحبة الفخافة سنركب الخيل بعد الغداء . هل وصلت الخيول أمس من لايستر شاير ؟

– إنها فى الإسطبل يا صاحب الفخامة، ولا مصاعب أو مشاكل هناك .

– عظيم ! مرهم أن يسرجوا سوالو وأحد الجياد التى تركتها هنا.

– سمعاً وطاعة يا صاحب الفخامة .

وكانت إلفا قد وصلت إلى قمة السلم فأحست فى قلبها رجفة سرور ، فالركوب معه يشعرها بأنهما متناغمان كالموسيقى التى تحملها الرياح إليهما من الغابة . وطلبت من الوصيفة أن تعد لها زى الركوب الفيروزى الذى يتمشى مع لون عينيها ، ثم أسرعت بالنزول إلى مائدة الغداء .

ولم يتمكنا من الحديث إلا حديثاً تقليدياً أمام الخدم ، ولكنها شعرت أن كل كلمة عادية كانت محملة بمعنى سرى خاص. وحدث توقف فى الحديث على المائدة ، وأحست أن عينى الدوق كانتا مصلتتين على شفتيها . ولأنها عرفت ما يفكر فيه شعرت بالخجل فجأة وارتفع الدم القانى إلى شفتيها ، وقال هو : « إن الجوادين فى انتظارهما » .

وركبا عبر البستان . وبالنسبة لإلفا كان ركوب سوالو فى صحبته شيئاً مثيراً ينعكس فى عينيها ، ولم يكن بوسعها تفسير ذلك ، ولكن المشاعر التى لم يزل يثيرها فيها الدوق الليلة الماضية تجددت ،ونظرت إلى الدوق وأحست إلى أى مدى كان وسيماً وفخماً ، فخفق قلبها بصورة عجيبة .

وبسبب حرارة الجو ، سرعان ما قللا من سرعتهما ، وقادها الدوق بالخطوة البطيئة إلى غابة عند حافة البستان ، حيث يوجد ممر لخيل وسط الأشجار بعيد عن حرارة الشمس، ولكن الشمس تكسو أعالى الأشجار بلون ذهبى ، فأحست إلفا كأنهما فى نفق من الضوء.

وكانت الغابة ساكنة تماماً إلا من صوت طائر عابر يصعد إلى السماء عند اقترابهما . ومع هذا كانت إلفا واثقة بأن الأشجار تتحدث إليهما . وأن الدوق يسمعها كما تسمعها .

وظلا راكبين مسافة طويلة فى الغابة . ولم يقدها الدوق عائدين إلا عندما انتهت الغابة فى درب متعرج ضيق وجدته إلفا جميلا جداً ، حتى أنها أرادت أن توقف جوادها . لأنها أحست أرواح الغابة قريبة منهما ، ولكنها خجلت أن تقترح ذلك على الدوق ، وظلا راكبين إلى أن أبصرا القصر مرة أخرى . وكانت تعرف أنه ينوى العودة لأن لديه خطة لكليهما .

وتبينت أنها تستطيع قراءة أفكاره . وشعرت بأنه يستطيع أيضاً قراءة أفكارها . وكأنما سألته . قال :

— لقد جئت بك إلى هنا بعد ظهر اليوم لأننى كثيراً ما ركبت فى هذه الغابة عندما أكون وحدى . وغداً . وربما هذا المساء سوف آخذك إلى الغابة التى خلف القصر حيث يوجد مكان خاص أود أن تريه .

— خاص بك ؟

— خاص بى جداً . وأظنك ستستطيعين أن تفسرى لى لماذا كان له هذا المعنى الكبير عندما كنت طفلا : ثم فتى .

وابتسم قبل أن يستطرد :

— عندما كنت مضطرب النفس أو وحيداً أو بحاجة إلى تسوية

على نحو ما ، كنت أذهب إلى البركة التى فى وسط الغابة :

– بركة ؟

– أنا متأكد أنك ستقولين لى إنه السحر . ومع أنى لم أزرها منذ سنين ، إلا أنها ترد على ذهنى بشدة منذ قابلتك .

وكان يتكلم بطريقة جعلتها تلهث ، ولكنهما لم يتكلما إلى أن وصلا القصر ، حيث كان السياس فى انتظارهما .

* * *

صعدت إلفا إلى حجرتها لتبدل ثيابها ، وكأنها شعرت بأهمية ذلك ؛ فارتدت أحد أثوابها الخضراء التى كانت قد اختارتها خصيصاً ، لأنها ظنت أن الدوق قد يعجب بها فيه . ونظرت إلى الساعة وتبينت أن الوقت متأخر ، وأنهما استغرقا فى الركوب مدة طويلة .

ولم تكن مجهدة على الإطلاق ، بل على العكس أحست دفقة حيوية حتى كأنها تطير وهى نازلة السلالم إلى الصالون ، حيث كانت تعلم أن الدوق سيكون فى انتظارها ، ولم تكن مخطئة ، فقد كان هناك وملبسه فى غاية الأناقة بعد أن بدل ملابس الركوب . ولكنه فى الوقت نفسه كان يبدو هادئاً مسترخياً وأسعد مما رأته فى أى وقت .

وكان الشاى فى انتظارهما ، واتجهت إلفا إلى المنضـدة لتصب الشاى . وكان هناك عدد كبير من الحلوى للانتقاء منها . ولكن الدوق تناول شايه ورفض أن يأكل شيئاً : ووجدت إلفا نفسها أيضاً

غير جائعة ولا رغبة لها فى أكل شىء . وقال الدوق بصوت عميق :

– أريد أن أتحدث إليك يا إلفا ، ولكن يحسن بى إذا كنت مجهدة أن أدعك تستريحين .

– لست متعبة .. وليست بى رغبة للراحة .

– إذن هل نتكلم هنا ؟ أم نذهب إلى مكتبى الذى أحس أنه أقرب إلى الخصوصية ؟

– بل أحب أن نذهب إلى المكتب ، وأعرف أنه أحب الحجرات إليك لأن به صور الجياد .

– كيف عرفت هذا ؟ .. أحسب أن كلا منا يعرف الكثير عن الآخر بدون تفسيرات .

وسكت الدوق قليلا ثم فجأة مد نحوها يده وقال :

– يا إلفا ...

ولكن فى هذه اللحظة انفتح باب الصالون ، وسمعا صوت كلام وأعلن كبير الخدم :

– الكونتس ، والشنجهام ، والميجور ، ومسز فنويك ، ومستر هارى ، شلدون واللورد هامبتون !

وقبل أن يفرغ كبير الخدم من كلامه ، كانت الكونتس تعبر الحجرة ويداها ممدودتان نحو الدوق ، وعيناها تتلألأن ، وشفتاها الحمراوان تبتسمان . وسألته :

– أمندهش أنت لرؤيتنا يا سلفانوس ؟ إننى حين سمعت أنك

غادرت لندن من غير أن تخبرنى ، قررت ألا أدعك تفر بهذه السهولة ! لذا حضرنا جميعاً للإقامة معك هنا !

وحجز الدوق عن الكلام برهة . ولما أمسكت الكونتس بيديه ووقفت تنظر باسمة إلى وجهه ، بجمال فتان ، شعرت إلفا أنه ما من رجل يستطيع مقاومتها ، وقابلت عينا الدوق عينى هارى شلدون ، فقال هارى :

– لم تكن هذه الفكرة فكرتى : إيزوبل هى التى أصرت على الحضور . ورأيت أن أحضر أنا أيضاً لأدعم روحك المعنوية !

فقالت إيزوبل :

– طبعاً أنا التى أصررت ، فقد كنت تقولى لى دائماً : إن أى بيت تمتلكه هو بيتى وتحت تصرفى ، وأنا الآن أقيدك بهذا الوعد ، ثم إن كيتى كانت مشتاقة إليك أيضاً .

وعندئذ تذكر الدوق آداب السلوك الاجتماعى ومد يده إلى مسز فنويك وقال :

– ما ألطف أن أراك ياكيتى ! كيف أنت يا إدوارد ؟

وفى أثناء ذلك أن لورد هامبتون وصل إلى إلفا ورفع يدها إلى شفتيه . وقال :

– كنت أنوى أن أزورك اليوم يا دوقة ، ومع أنك زغت منى ها أنا ذا قد أدركتك !

وقاطعه الدوق قائلا :

– إلفا . لا أظن أنك قابلت مسز فنويك من قبل ، وهى صديقة قديمة لى ، وكنت زميلا لزوجها فى نفس اللواء بالجيش .

وصافحتهما إلفا ، ولكنها لم تحاول الترحيب بالكونتس التى كانت تنظر إلى الدوق بطريقة وجدها هارى محرجة .

وعندئذ قالت إلفا بصوت أنعم وأهدأ من صوت الضيوف غير المدعوين :

– أظن ما دام أصدقاؤك سيقيمون هنا يا سلفانوس ، فإننى ينبغى أن أخبر مديرة البيت بوصولهم .

وعرف الدوق أن هذه مجرد ذريعة لمغادرة الصالون ، فقال بسرعة :

– نعم : أخبريها .

وقالت الكونتس بحدة :

– لاحاجة بالكونتس لأن تتعب نفسها لعمل مثل هذه الترتيبات ، فمسز فيلد (مديرة البيت) تعرف تماماً ما هى حجرتى المعتادة ، وأنا أخبرت بنفسى كبير الخدم أين ستقام بقية المجموعة .

وتصرفت إلفا وكأنها لم تسمع ، وما إن مشت من جوار الدوق حتى أسرع هارى كى يفتح لها الباب ، ووقفت كى تقول له :

– يسرنى أن أخبرك أن الجياد وصلت كلها فى خير حال :

– يسرنى أن أسمع هذا .

وفكر فى أن يخرج معها إلى البهو كى يعتذر لها ، ولكنه خشى

أن يكون متطفلا : والواقع أنه فزع عندما تلقى رسالة من إيزوبل تخبره فيها أنها تنوى أن تأخذ مجموعة من الأصدقاء إلى «شستر هاوس» ودعته للذهاب معهم .

ومع أن الدوق لم يقل له شيئاً ، إلا أنه ارتاب — لأنهما صديقان حميمان جداً — أن سلفانوس لم يعد شديد الاهتمام بإيزوبل كما كان قبل الزواج . والواقع أنه كان مستعداً للمراهنة بمبلغ كبير بأن الدوق أثناء الإقامة فى لايستر شاير مع إلفا لم يعر الكونتس أى خاطر من خواطره : ولكن هارى كان مع هذا قد أنذر الدوق أن إيزوبل ستقاتل كأنثى الأسد للاحتفاظ بما تظنه ملكيتها الخاصة ، وكان متأكداً أن الشخص الوحيد الذى سيعانى من هذا الصراع هو إلفا : ولكنه لم يكن يدرى كيف يمنع ذلك ؟

وفيما هو حائر يتساءل ماذا ينبغى أن يصنع ؟ فطن إلى أن إلفا كانت تصعد السلالم ببطء ورشاقة ، ولا يبدو عليها إطلاقاً أنها هاربة من شيء غير مستحب . ولم يكن هناك وقت لعمل أى شيء ، أو متسع لمناقشة حميمة قبل أن يحين وقت تبديل الملابس للعشاء :

ولما ذهبت إلفا إلى حجرة نومها ، من غير أن تحاول الاتصال بمديرة البيت . وجدت وصيفتها هناك ترتب الأشياء التى وصلت من لندن ، وتعد لها ثياب السهرة . واتجهت إلفا إلى النافذة ، ووقفت تطل على الظلال التى أخذت تتراكم فوق العشب وتحت أشجار البستان :

وكانت أفكارها بعيدة تماماً عن المرأة التى بالطابق السفلى ، وعرفت أن الدوق دهش فقط لوصول الكونتس ، بل وضاق بذلك واستاء منه أيضاً ، فهى قد عرفته الآن معرفة كافية كى تدرك أنه يكره أى تغيير فى خططه ، ولأنه من هواة الكمال كان يضيق بالمفاجئات وقلما يجدها سارة .

وفكرت بإمعان فى ركوبهما منذ قليل فى الغابة وشعورها بذلك القرب الشديد منه .

وسألتها الوصيفة :

— ماذا سترتدين هذا المساء يا صاحبة الفخامة ؟

وظلت برهة عاجزة عن التركيز فى هذا السؤال ، ثم بدا لها أن القرار أملى عليها إملاء من داخلها ، فقالت :

— سأرتدى ثوب زفافى !

* * *

ولما نظر الدوق إلى زوجته وهى جالسة على الطرف الآخر من المائدة ، واللورد هامبتون عن يمينها وهارى عن يسارها ، شعر أن إلفا انسحبت إلى عالم خاص بها ، وداخله الخوف فجأة أنه لن يستطيع الوصول إليها فيه .

وظل على امتداد الوجبة مدركاً أن إيزوبل مستفزة وعدوانية مع الجميع ، إلا معه هو ، فقد كانت مفرطة فى التودد مبالغة فى الإعراب عنه ، وكان قد عرف عندما دخل الصالون قبل العشاء

ودخلت هي متجهة إليه وعلى فمها ابتسامة ، ويداها ممدودتان كي تلمسه في مداعبة ، أن مشاعره قد تغيرت ، بل إنه لم يعد يجدها جميلة !

ولم يكن غريباً عليه أن يمل النساء اللواتي كن يجتذبنه ، ولكن في العادة كانت تسبق ذلك فترة تبرد فيها رغبته ويجد تصنعهن مثيراً للأعصاب . وحديثهن سخيفاً . مع احتفاظهن في تلك الفترة بقدرتهن على إثارته جسدياً ، إلا أنهن كن يجعلن عقله يتثاءب . أما الآن فكأنما أسدل ستار بينه وبين إيزوبل ؛ ولذا وجد جمالها لا قدرة له على تحريك أي شعرة فيه ، ولو بمجرد الإعجاب .

ومع امتداد العشاء بدأ يبغض طريقتها التسلطية التملكية . وسمج فكاهتها . وأسلوبها في محاولة احتكار انتباه كل شخص . ولا سيما هو . فظل ينظر نحو إلفا . ويتساءل فيم تفكر . وما هو شعورها ؛ وندم الآن لأنه لم يؤت قوة العقل أو لم يكن قاسياً بما فيه الكفاية كي يرفض بلا رحمة تلك المجموعة من الأصدقاء الذين لم يدعهم . وليست لديه أي رغبة في استضافتهم . ولكنه تبين مع هذا أن ذلك التصرف كان حرياً أن يسبب فضيحة مدوية في أرجاء النوادي ؛ ولا تلقى عليه هو فحسب ظلالا سيئة ، بل على إلفا أيضاً .

فلم يكن أمامه في الواقع إلا أن يقبلهم ؛ وعندما صعدوا إلى حجراتهم كي يرتدوا ملابس العشاء ، وسمع هاري يغمغم باعتذار . اكتفى الدوق بأن قال :

– إنها غلطتي أنا ، فقد كان ينبغي أن أتوقع هذا !

– لقد أنذرتك بطباع إيزوبل ..

– أجل . ولكني لم أصدقك ! ولكنك لسوء الحظ كنت على صواب !

وكان هاري خليقاً أن يقول شيئاً آخر ، ولكن إيزوبل التي كانت تصعد السلالم ببطء وذراعها في ذراع كيتي فنويك . استدارت كي تسأل :

– بماذا تتهامسان ؟ أنت تعرف يا عزيزي سلفانوس أني لا أسمح لك بأن تكون لك أسرار بعيداً عني .

ولم يقل الدوق شيئاً ، بل ذهب إلى حجرة نومه وصفق بابها ، وكان يعرف أن ما قالت إيزوبل إنها حجرة نومها الخاصة هي المقابلة لحجرته . وكان يعرف لماذا جاءت وماذا تنوي أن تفعل . وانحرف مزاجه جداً أثناء ارتدائه ثياب السهرة ، فقد كان عنده الكثير ليقوله لإلفا . وكان ينوي أن يفضي إليها به بعد العشاء .

أما الآن ، والوجبة تمتد كالعادة ، فقد تساءل بينه وبين نفسه : كيف ستنتهي الأمسية ؟ وماذا عساه يصنع لمنع إيزوبل من إهانة زوجته ؟ وهو ما تقدم عليه بكل كلمة تتفوه بها ، وبكل نظرة ترمقها بها ، وكلما لمسته بيديها في رفع للكلفة يضيق هو به في كل مرة .

وأخيراً عندما حان الوقت كي تغادر السيدات الحجرة . نظرت إلفا على امتداد المائدة فالتقت عيناها بعيني الكونتس قبل أن تنهض على قدميها ، ولكن إيزوبل نهضت أولا ، وكأنها المضيفة وقالت :

ـ أظننا ينبغى أن نترك السادة لتناول البورت ، ولكن لا تمكث طويلا يا عزيزى سلفانوس فأنت تعرف كيف أكره ألا تكون معى !

وكانت هذه العبارة مستهجنة جداً ، حتى أن هارى نفسه شهق ، ولكن إلفا سارت نحو الباب ووقفت هناك فى انتظار إيزوبل كيف تخرج أولا . ومشت إيزوبل أمامهـا فى ثوب من الشيفون الأزرق كعينيها ، وهى تتلألأ بالألماس ، وتبعتها كيتى فنويك . وفيما هما سائرتان جنباً إلى جنب فى الممر وإلفا خلفهما قالت إيزوبل :

ـ أظنك تعرفين أنى أعاون سلفانوس فى تحسين القصر وإعادة ترتيب كنوزه .

ـ لم أر فى حياتى مثل هذه اللوحات الفخمة :

ـ إنها تضاهى فخامة صاحبها .

ودخلتا إلى قاعة الاستقبال ، وقالت الكونتس :

ـ أنا لا أسمح لأى أحد أن يجلس فى مقعدى المفضل المحفـوظ دائماً لى ، ولكن اجلسى بجانبى يا كيتى ، وسأقول لك فكرة مثيرة خطرت لى .

ـ وما هى ؟

ـ أظنك سمعت أن سلفانوس شيد لنفسه يختاً جديداً ؟ أنا لم أره بعد . ولكنى أعتقد أنه خرافى ، وعندما يتم إعداده سنرتب رحلة للخارج ، ولا أدرى لماذا لا يأخـذنا سلفانوس إلى نهر السين ، وما أبدع أن نكون معه فى باريس :

وكانت الكونتس تتحدث بصوت مرتفع ، لكى تتأكد أن إلفا تسمع ما قالت بالضبط . ولـكن إلفا بدلا من الإصـغاء اتجهت إلى النافذة المفتوحة لتطل على الحديقة . وفجأة ، وبدون أن تنظر إلى المرأتين الجالستين بجـوار المدفأة المملوءة بالأزهـار ، خرجت إلى الشرفة . واختفت عن الأنظار .

* * *

وأبى الدوق أن يمكث طويلا لاحتساء البورت ، ونهض لمغادرة المـائدة . وسأله اللورد هامبتون :

ـ فيم العجلة يا سلفانوس ؟

ولم يجبه الدوق ، وأدرك هارى أن سبب عجلته هو خـوفه مما عسى أن تقوله إيزوبل لإلفا . وتوجهوا معاً إلى قاعة الاستقبال ، واللورد هامبتون يحمل كأساً كبيرة من البورت . وهناك لم يجـدوا إلا إيزوبل وكيتى .

ولم يكن الدوق بحاجة إلى أن يسأل أين إلفا ، وكأنمـا أخـبرته النافذة المفتوحة بالجواب ، أو لعل ذبذباته تجاوبت مع الذبذبات التى تركتها وراءها . وكما فعلت هى تماماً ، وبدون شرح خرج إلى الشرفة .

وصاحت إيزوبل هاتفة باسمه ، ولكنه أسرع بهبوط الدرج إلى الحديقة ، وعبور المرج المخملى . وكان النهار كله حاراً . والمساء أشد حرارة . وليست هنـاك نسمة ريح لتخفيف الحـرارة التى كانت شديدة كما لو كانت الشمس ساطعة ، والنجوم تملأ صفحة السماء ،

والقمر طالع فوق الغابة التى كانت المكان الذى جزم الدوق بأنه سيجد فيه إلفا .

ومع هذا كانت هناك مسافة كبيرة فى الحديقة يجب قطعهـا أولا . ولأنه كان يسير بسرعة متعجلا اللحاق بها ، خلع سترته المحبوكة وواصل المشى ، وهو يحملها على ذراعه . ولما وصل إلى الشجيرات تجاوزها بسرعة ، حتى إذا بدأت أشجار الغابة العالية تبين مبلغ الحرارة التى يشعر بها ، ألقى بالسترة التى يحملها على الأرض ، على أن يستردها وهو عائد . ثم فك رباط عنقه . ومن بعده قميصه وخلعه . وهو شيء كثيراً ما أقدم عليه فى الجو الحار عندما كان صبياً ، وكان ذلك يثير تجهم مربيته . ثم مؤدبه الخاص بعد ذلك . ولكنه كان يبدو له صواباً فى حينه . وإنه ليبدو له صواباً الآن .

وسار بصدره العارى . ووجد صعوبة فى تبين طريقه لولا أشعة القمر الفضية التى تضيء الأشجار العملاقة وتتسلل بينها . وبدت له الغابة جميلة جداً . ولكنه تاق كما لم يتق من قبل قط أن يشارك إلفا الإحساس بهذا الجمال . مدركاً كم هذا الجمال الغامض ينتمى عندها إلى عالم مختلف عن العالم الذى خلفه وراءه .

وكان متأكداً أن الدرب الذى يمشى فيه خليق أن يوصله إليها ، لأنه لم يخطر بباله أنها يمكن أن تشق لنفسها طريقاً فى غابة لم تمش فيها من قبل . ولما وصل أخيراً إلى المكان الذى كان واثقاً بأنه سيجدها فيه وجد رحبة من الأرض الخالية ، والأشجار العالية تحيط بالبركة

التى حدث إلفا عنها وقال لها إنها كانت ذات معنى خاص جداً بالنسبة له وهو صبى .

وفى هذه البركة زنابق الماء وأزهار برية نابتة حول حافتها ، وعلى أحد الجوانب حيث الأشجار ليست شديدة القرب توجد رحبة من العشب الكثيف الأخضر حافلة بالأزهار البرية ، فأضفى هذا على البركة مزيداً من الغموض كأنها من عالم الأساطير .

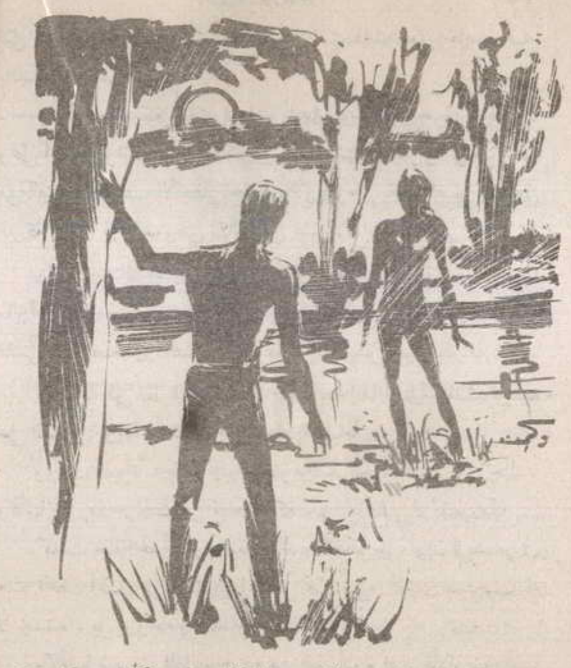
وكانت هناك أشجار شاهقة تكفل الظلام والحماية ، وكان أول ما رآه الدوق بينه وبين إلفا شيء بدا له وكأنه شعاع متألق من أشعة القمر ، لا يصعد إلى القمر ، بل يفترش الأرض بجوار البركة .

وعندما ألقى نظرة ثانية تبين أنه ثوب إلفا الذى كانت ترتديه على العشاء ، وإذا بها تقف أمامه عارية تماماً .

ووقف مبهوتاً ، ينظر إليها وضوء القمر يحولها إلى كائن خالد ، وكأنها حورية خرجت من مياه البركة . والماء لم يزل يقطر منها ...

كانت نحيلة جداً ، ورشيقة ، بديعة التكوين ، وإن لم يشعر فى هذه اللحظة أنها امرأة يشتهيها ، بل هى شيء أثيرى يستجيب له لا بجسده ، بل بروحه وأنفاسه اللاهثة .

وكأنما شعرت إلفا بوجوده من غير أن تراه . فأدارت رأسها ونظرت إليه وهو واقف فى ظلال الأشجار . وعندما سار صوبهـا لم تتحرك أو تبذل أى جهد لتوارى عريها ، بل وقفت فى ضوء القمر الذى يتلألأ على قطرات الماء فوق جسمها ، وانتظرت .



ووقف مبهوتاً ، ينظر إليها وضوء القمر يحولها إلى كائن خالد ، وكأنها حورية خرجت من مياه البركة ، والماء لم يزل يقطر منها ..

ووصل إلى جوارها ووقف ينظر إليها وكأن كلا منهما يقترب من الآخر ويبحث عنه عبر الأبدية ، وكل ما يحدث كان مقدراً منذ الأزل ، قبل ولادتهما بوقت طويل . ثم سمع الدوق الموسيقى التى بدت وكأنها لا تصدر عن الأشجار فحسب ، بل من إلفا نفسها أيضاً ، وكأنهما يتحركان على إيقاعها وببطء شديد ، ووضع ذراعيه حولها وجذبها إليه . وبدت شفافة وهو يطبع شفتيه على شفتيها .

وفى هذه اللحظة لم تكن فى قبلته شهوة ؛ بل إجلال وكأنه يلمس شيئاً مقدساً . ثم لما شعر بجسد إلفا لصق جلده العارى تزداد حرارته ازدادت قبلته عمقاً .

وعرف وهى ترتجف فى أحضانه أنه أيقظ فيها نفس النشوة التى شعرت بها فى الليلة الماضية ، والتى شعر هو بها أيضاً ؛ ولم يحدث قط فى حياته كلها ، فى كل المرات التى مارس فيها الحب مع نساء لا يحصين العدد ، أن عرف مثل هذه النشوة والمشاعر التى أيقظتها فيه إلفا عندما قبلها فى حديقة قصر ديفونشاير .

ولأنها كانت مشاعر غريبة جداً ورائعة للغاية ، لذا شك هـذا الصباح فى أنها حدثت فعلا ، واعتقد أنه كان يتخيل شيئاً لم يقع ؛ أما الآن فقد عرف أنها جزء يسير جداً مما يمكن أن تجعله يشعر به ، ومن الروعة التى يمكن أن يجداها معاً ؛

وجذبها أكثر وأكثر وصار الحب الذى يمارسه مختلفاً عن أى

حب مارسه الدوق أو عرفه ، أو حتى تخيله . فها هى إلفا كلها له ، وهو لها ، وصارا كياناً واحداً لا يتجزأ .

وكانت أشعة القمر تتلألأ ، وموسيقى الأشجار أعلى ، وتنبعث أيضاً من قلبيهما ، ومن أرواح الغابة . ورفع الدوق إلفا بين ذراعيه وأحس كأنه يحمل ريشة على قلبه ، قبل أن يرقدها بلطف على العشب ، وسط عبير الأزهار البرية ، ولكنه لم ينتش بعبير الأزهار فحسب ، بل بكل ما حوله – بالعبير المنبعث من الأرض ومن الأشجار ، وبكل نبات يتنفس حوله ، وشعر بكل هذا ينبض بالحياة فى عروقه ، وفى الموسيقى وضوء القمر ، وفى إلفا التى ترتجف كالقيثارة على إيقاع ممارسة الحب ، وحملتهما النشوة المشتركة إلى السماء ، وهما كيان واحد .

* * *

وبعد ذلك بمدة طويلة ، عندما تحرك ضوء القمر من فوق البركة ، وغطتهما ظلال الأشجار ، همست إلفا :

– أحبك ....

وكان صوتها واهناً ، وكانت هذه أول مرة تتكلم فيها منذ جاء الدوق ، ومع هذا شعر كأنهما تبادلا مليون كلمة ، ولم تعد بينهما أى أسرار . وأجابها :

– وأنا أحبك يا جنيتى الكاملة ، يا عزيزتى ، يا قلبى ، يا حياتى كلها !

– لم أكن أعرف ... أنى يمكن أن أشعر ... بأى شىء مثير

لهذه الدرجة ، وعظيم وكامل ... ومع ذلك كله أظل على قيد الحياة :

– ألم أروعك ؟

فابتسمت وقالت :

– كيف يمكن أن أرتاع ... من سلفانوس ؟

– أوجدتنى كما ظننت ؟

– نعم . أنت الإله الذى كنت دائماً ... أعبده ... وأبحث عنه فى الغابة ... بين الأشجار ... وعندما دنوت منى الآن لم أظنك أنت ... بل الإله سلفانوس ! وكان ينبغى أن أركع عند قدميك !

– كما كان ينبغى أن أركع أنا عند قدميك ، لأنك أبدع حورية خرجت من بركة مسحورة فى غابة خفية !

وأطلقت إلفا ضحكة سعادة خالصة وقالت :

– بركة مسحورة ... وعندما رأيتها عرفت لماذا كنت تأتى هنا وأنت صبى :

– أعرفت أننى كنت سأتبعك إلى هنا الليلة ؟

– طبعاً ... الأشجار نادتنى منذ رأيتها أول مرة ...

– لا بد أن هذا ما حدث .

– سلفانوس ! أنت تفهمنى ! ولم أكن أتصور أن أى إنسان سيفهمنى . ولا سيما أنت بعد أن سمعت عنك ما سمعت . ولكنى لم أفكر فيك إلا كرجل ... رجل باهر :

– والآن ؟

– أنت الآن فى نظرى إله الأشجار الذى كان دائماً جزءاً من حياتى .

– كما كنت أنت جزءاً من حياتى ، وإن لم أفطن لذلك . ولكن عندما ضممتك بين ذراعى الآن عرفت أن ذلك كان مقدراً منذ الأزل ، وأننا سنعيش معاً إلى الأبد .

– أتعنى هذا حقاً ؟

– لا يمكن الآن لأى امرأة أن تجذبنى ...

فارتمت إلفا على صدره وهى فى غاية السعادة .

ومر الدوق بيده على ردفها قبل أن يقول :

– ولماذا أقول « أى امرأة » ، إنك لست امرأة ، أنت كائن فوق البشر سحرنى واحتوانى إلى الأبد .

– هكذا أريدك ... مسحوراً بحبى الجبار ... فالحب كما أشعر به سحر لا يقاوم ، سحر ينبعث من الأشجار ، ومن سلفانوس إله الأشجار . ألا تسمع موسيقى الأشجار ؟

– سنعيش لنسمعها معاً .

وبحث شفتا الدوق عن شفتيها ، وكانت قبلته رقيقة وجبارة فى نفس الوقت ، واستيقظت فيه نبضات الحب ، الذى تستجيب لضماته أعطافها الأثيرية ، وهتفت من أعماقها :

– أحبنى هكذا دائماً يا سلفانوس !

– سأعيش لأحبك ، أنا المسحور بك أيتها الجنية !

* * *

الفصل السابع

استيقظ الدوق بشعور غامر بالسعادة ، ورقد برهة مغمض العينين ، يفكر كيف أنه لم يكن قط فى حياته بمثل هذه السعادة والاكتفاء واكتمال الذات . وفتح عينيه ليجد الستائر مزاحة ، فأدرك أن خادمه الخاص حاول إيقاظه ثم تركه غارقاً فى نومه .

وليس هذا غريباً ، لأنه لم يعد مع إلفا إلى القصر إلا بعد أن شحبت النجوم والقمر فى السماء وكان صعباً على نفسيهما أن ينتزعاها من سحر البركة للرجوع إلى دنيا الواقع . وكانت إلفا تنظر إليه طول طريق العودة بهيام شديد يصل إلى حد العبادة . أما القصر المظلم فذكر الدوق أن أمامه مشكلات كبيرة فى الصباح . ودخل بإلفا من باب جانبى ، وصعدا سلماً ثانوياً من غير أن يراهما أحد . وتولى هو خلع ثوبها ورفعها إلى الفراش . وقد تهدل شعرها المتوهج على الوسادة ، فتأكد له صدق قوله إنه لن يستطيع أن ينظر إلى امرأة أخرى أو تجذبه أى امرأة أخرى . وقال لها :

– نامى الآن يا عزيزتى ولا تفكرى إلا فى أن كلا منا وجد الآخر ، ولا شىء عدا هذا له أى أهمية .

– أحبك يا سلفانوس ... أعبدك يا سلفانوس !

فقبلها بلطف على شفتيها ، ورنقت للنوم قبل أن تغادر الحجرة ،

وقال لنفسه عندما صار فى حجرته إنه وجد أخيراً نصفه الآخر :
ونام واسم إلفا على شفتيه : وكانت أول ما خطر بباله حين استيقظ
وتمنى أن تكون نائمة حتى يوقظها بقبلة كما أيقظ أنوثتها :

ثم لما غادر فراشه رأى شيئاً أبيض تحت الباب الموصل بين
الحجرتين ، ولما انحنى ليلتقط ذلك الخطاب خامره الخوف فجأة :
ترى ماذا حدث ؟ ولماذا كتبت إليه بدلا من لى أكرة الباب لتدخل
عليه وترتمى بين ذراعيه ؟

وكانت يده ترتجف وهو يسحب الورقة من المظروف : ولم تكن
بالورقة إلا بضع كلمات :

« أحبك يا سلفانوس : ولا أحتمل أى شىء يفسد روعة حبنا ،
وعندما تنادينى سأسمعك وأعود » .

وفهم على الفور ما تعنيه ، إن حبهما مقدس ينبغى ألا يدنسه أحد ،
وهذا الأحد هو إيزوبل . ولكنه شعر بقلق شديد لأنه لا يعرف أين
ذهبت ، وكيف ؟ ولم يطق البعاد عنها ولو بضع ساعات .

وركز الدوق تفكيره ، ثم بحزم جذب الجرس ، ولما جاء خادمه
الخاص أصدر أوامره بوضوح شديد .

* * *

وبعد ساعة كان الدوق يركب أسرع جياده بكل سرعة إلى قصر
نورثالرتون ، فوصل بعد أقل من عشرين دقيقة ، وتوجه إلى
الإسطبل حيث ترك جواده مع سائس ، ثم دخل من باب جانبى إلى

الطابق الأول وقال لإحدى الخادمات إنه يريد مقابلة الليدى كارولين :
ولما أرادت أن تقوده إلى قاعة جلوسها أبى وقال إنه يعرف طريقه :

وكانت كارولين جالسة على أريكة وبجوارها إدوارد كالكيرك ،
وقد أمسك كل منهما بيد الآخر ، ونظرا إليه بدهشة ، ثم وقفا
بخجل . وقال الدوق :

ـ يؤسفنى أن أقطع جلستكما يا كارولين ، ولكنى أريد مقابلتك
على انفراد من غير أن يعرف والداك بقدومى :

فهم إدوارد بمغادرة الحجرة ، ولكن الدوق مد إليه يده وقال له :

ـ كنت أنوى زيارتك فى المستقبل القريب ، ولكنى سأتكلم
الآن : إن إلفا قالت لى إن لديك عدد من المهارى الجيدة . وأنا أرحب
بأن تستخدم طلوقاتى وهى من أجود الخيول كما تعلم فى القطر كله :
ومن السخافة ألا نصنع هذا وقد صرنا أنسباء ، بل إنى أرحب بأن
نكون شريكين رسمياً .

وذهل إدوارد من الفرح ، أما كارولين فأطلقت صيحة ابتهاج
وصفقت بيديها وقالت :

ـ ما أبدع هـذا . بعـد إعلان الشركة رسمياً لن يتأخر أبى عن
قبول إدوارد زوجاً لى .

فابتسم الدوق وقال :

ـ هـذا بالضبط ما كنت أفكر فيـه . وما عليك إلا الذهاب

يا إدوارد لمقابلة مدير إسطبلاتى الذى سيتكفل بتنفيذ كل الإجراءات حسب تعليماتى :

وهكذا تسلل إدوارد خارجاً وهو مذهول من الفرح ، والتفتت كارولين إلى الدوق :

– كيف أشكرك ؟

– بأن تقولى لى أين أجد إلفا . أين تظنينها ذهبت ؟

ورأى دهشة كارولين فأسرع يقول :

– كلا ! لم نتشاجر ، بل نحن فى غاية السعادة .. ولكن عدة ضيوف حضروا فجأة بدون دعوة ، فقررت التوارى إلى أن يرحلوا . وقد عرفت أنها رحلت فى ساعة مبكرة على ظهر سوالو ، ولذلك لا أظنها ابتعدت كثيراً .

وفكرت كارولين برهة ثم صاحت :

– عرفت أين هى ! ذهبت عند مربيتها القديمة مس ماتيسون : وسبق لها أن ذهبت إليها عندما أغضبها بابا .

– وأين تعيش مس ماتيسون .

– على بعد نحو عشرة أميال على أقصى الحافة الجنوبية من دائرة بابا فى قرية ولهام ، فى كوخ كانيساكل .

– أشكرك . ومن فضلك لا تخبرى والديك أنى سألتك عنها ، وأتمنى ألا يفطنوا لحضورى .

– بابا ذهب لحضور اجتماع ، وماما مشغولة بحديقتها ، فأنت فى أمان .

وأسرع الدوق عائداً من حيث أتى ، راجعاً إلى قصره ، وهناك تبين له بارتياح أن الوقت لم يزل مبكراً لظهور إيزوبل أو كيتى ، وهو أيضاً لايريد أن يرى جورج هامبتون ولا فنويك . فصعد إلى حجرته لتبديل ثياب الركوب وأرسل خادمه الخاص ليطلب من هارى الحضور إليه :

وسرعان ما جاء هارى . فقال له بحزم :

– إنى راحل . وقد قلت لى ذات مرة إنك مدين لى بالمساعدة عندما أحتاج إليها .

– ماذا تطلب منى ؟

– أريد منك أن تتخلص من إيزوبل نهائياً . وأن ترعى البيت أثناء غيابى ، واهتم على الخصوص بخيولى .

– وأين أنت ذاهب ؟ ومتى ستعود ؟

– لا أستطيع الإجابة حالياً عن هذه الأسئلة وخصوصاً موعد عودتى ، فليست عندى أى فكرة عن ذلك ، أما أين أنا ذاهب فسر بين إلفا وبينى .

– أأفهم من هذا يا سلفانوس أنك وقعت أخيراً فى الحب ؟

– وأنا سعيد لأول مرة فى حياتى .

— هذا خبر سار ؛ ولكن لا يفرحنى أن أتولى التخلص من النفايات .

— ليس هناك سواك لتولى هذا العمل :

— لابد أن تتوقع من إيزوبل مقاومة شرسة :

— وضح لها أنى لا أريد أن أرى وجهها بعد الآن .

— وإذا رفضت المغادرة ؟

— دعها تسأم وتمل من الريف فترحل .

وارتدى الدوق حلة السفر وصافح هارى مودعاً، الذى قال له :

— بلغ حبى إلى إلفا . لقد عرفت من أول نظرة أنها مختلفة ، لا فى الشكل فقط ، بل فى الطبع أيضاً عن أى امرأة رأيتها من قبل :

وصحب الدوق إلى باب جانبى فوجد جياد الدوق تنتظر مشدودة إلى عربة صغيرة هى أحدث ما اشتراه .

وتوجه الدوق إلى قرية ليتل ولهام، وعثر على كوخ هانى ساكل على حافتها . ومن ورائها غابة صغيرة . ووثب الدوق وطرق باب الكوخ . ففتحته سيدة عجوز بيضاء الشعر : عرفته على الفور وقالت له :

— إلفا تتوقع أن تقتفى أثرها ، ولكن ليس بهذه السرعة :

— وأين هى ؟

— ستجدها يا صاحب الفخامة فى الغابة : فقد قالت لى إن لديها أمراً تفكر فيه ، وذهبت إلى هناك بمجرد وصولها .

ولم ينتظر الدوق بقية تفسيراتها بل تجاوز مس ماتيسون، وخرج من الناحية الأخرى للكوخ من باب خلفى أفضى به إلى حديقة صغيرة معتنى بها ، وفى نهايتها بوابة خشبية ، ما إن اجتازها حتى وجد نفسه مباشرة فى الغابة .

وكان هناك ممر متعرج بين أنواع شتى من أشجار الزان والبلوط ، سار فيه الدوق إلى أن رأى الشخص الذى يبحث عنه متكئاً على جذع شجرة ضخمة ، وكانت إلفا ما تزال مرتدية ثوبها الحريرى الأخضر للركوب ، ولكنها خلعت سترتها وقبعتها ، وكأن صدار الثوب (البلوزة) بقعة من النور منطبعة على الأشجار . وشعرها الذهبى المتوهج كأنه قطعة من ضوء الشمس وسط ظلال الغابة .

ووقف الدوق ساكناً ينظر إليها . وعندئذ أحست بوجوده فالتفتت ورأته . واتسعت حدقتاها لحظة ثم أطلقت صيحة فرح غامر وجرت إليه مفتوحة الذراعين . فضمها إليه وغمرها بالقبلات حتى شعر بالأشجار تدور من حوله ، وقلباهما يدقان بعنف :

— أأنت هنا يا سلفانوس ؟ لم أحسبك ستعثر على بهذه السرعة :

— وكيف استطعت أن تهربى ؟ ليتك انتظرت كى آتى معك !

— لم أحسبك تود ذلك ؟

— بل أريده من كل قلبى ، ولأن طريقنا طويل لابد أن نرحل فوراً :

فنظرت إليه متسائلة ، فقال :

– هذا سر ..!

فدست ذراعها فى ذراعه ضاحكة وقالت :

– سيكون سراً مثيراً لأننى معك !

* * *

وكما قال الدوق كان طريق سفرهما طويلا ، وفى وقت متأخر من بعد الظهر رأت إلفا البحر عن بعد، وشمت رائحة الملح فى الهواء. وزادت اقتراباً من الدوق ، وشعرت أن تعبها قد زال . وغمرها الفرح بصورة لم تعهدها من قبل ؛

وكأنما فهم الدوق شعورها فاكتفى بالابتسام ، فكلاهما سعيدان جداً لدرجة أنهما لم يشعرا بحرارة الشمس طول النهار ، وبعد بضع دقائق دخلت بهما المركبة الخفيفة إلى قرية صغيرة للصيادين بها مرفأ طبيعى أرسى فيه الدوق يخته الجديد . وقد أطلق عليه اسم « الحورية » وأمر بإحضاره من حيث تم بناؤه إلى الساحل الجنوبى حيث يمتلك مساحة من الأراضى ، وكان فى نيته أن يستخدم هذا اليخت بعد شهر أو شهرين . أما الآن فهو ما يريده بالضبط فى هذه اللحظة ، وخطر له أن القدر نفسه ، أو ربما الآلهة التى تربط إلفا بينها وبينه ، هى التى تدخلت لتتيح لها شهر عسل مثالياً .

وقبل أن يركب إلى قصر تاورز هذا الصباح أرسل سائساً يحمل تعليماته . وعندما بلغا المرسى لاحظ بكل ارتياح أن عربة نقل تحمل حقائب إلفا وتجرها ستة خيول قوية سريعة جاءت طبقاً لتعليماته أيضاً .



وجرت إليه مفتوحة الذراعين ، فضمها إليه وغمرها بالقبلات حتى شعر بالأشجار تدور من حوله ، وقلباهما يدقان بعنف ..

أما هى فلم تنظر إلا إلى اليخت وتبينت جماله ، وأنه أكبر كثيراً مما توقعت أن يكون عليه يخت خاص . ورفعها الدوق من العــربة وذهبت متلهفة لتعبر السقالة ، بعد أن ربتت على الجوادين قائلة :

– لقد ظننتهما لسرعتهما الجوادين الذين يجتاز بهما أبولو السماء فى عربته النورانية !

فلمعت عينا الدوق وقال لها :

– أنا فعلا استعرتهما منه لهذه المناسبة الخاصة !

وكان اليخت قد صمم خصيصاً بواسطة الدوق وفيه مبتكرات تقنية كثيرة . قال ربانه : إنه سيثير حسد جميع أصحاب اليخوت الأخرى .

والصالون مزين باللون الأخضر ، والستائر الخضراء فوق النوافذ المستديرة . والأرائك خضراء ، وكذلك المقاعد . وهو لون إلفا المفضل : ولما نزلا وأراها كابينة مالك اليخت ، شعرت أنها تخطو إلى عالمها الخاص . فى وسطها فراش من البلوط ضخم الحجم ، وأعمدته منحوتة لتمثل جذوع الأشجار ، وعليها حفرت الحيوانات والطيور البرية ، مثل نقار الخشب والعقعق والحمائم ، بمهارة فائقة ، حتى لكأنها تنبض بالحياة ، حتى أن إلفا تطلعت إلى الدوق متسائلة ، فقال :

– عثرت فى إحدى القرى بدائرتى على صانع ماهر أرانى جانباً من مصنوعاته ، فكلفته بصناعة هذا السرير ، وستكونين أول من

تنام فيه يا عزيزتى ، كما أنك أول ضيفة صعدت على ظهر «الحورية» .

فتذكرت أنه يشير إلى قولها بعد أول قبلة « لا أحب أن أشرب من إناء شرب منه غيرى » . وتذكرت أيضاً قول الكونتس لكيتى : إن أول رحلة لليخت ستكون إلى باريس ، فسألته :

– وإلى أين نحن ذاهبان ... به ؟

فطوقها الدوق بذراعيه وقال :

– سنذهب إلى أى مكان تحبينه فى العالم يا معبودتى . وقد خطر لى أن نسير بمحاذاة الشاطئ إلى كورنوال حيث أمتلك بيتاً لم أزره منذ سنوات ، بل منذ صباى .

وفهمت أنه يقصد أنه لم يزره مع أى امرأة من قبل . واستطرد :

– إنه من ممتلكات أسرة والدتى . وقد تركته لى ، وهو قريب من البحر . وتحيط به الأشجار حتى حافة الماء ، ويمكننا أن نكون فيه وحدنا ، ولن يزعجنا أحد .

فالتصقت به وقالت :

– كم أنا سعيدة . لم أكن أحلم بأن أجد أحداً يمثل كمالك !

– يا حبيبتى . وأنا لن أشرك معك أى أحد ، أو أشارك فيك أحداً . وأغار عليك جداً من أى شىء سواى تهتمين به !

– لا محل لهذه الغيرة ، فأنا بأكملى ملكك يا معبودى ، فنحن قد صرنا بالحب مخلوقاً واحداً ، تضمه شجرة واحدة !.. لكنك معى ستكون شجرة ذات أغصان وتظلل الناس ، فأنا أعرف أن لك

مسئولياتك ، ولا يمكن أن أمنعك منها ، بل سأعينك عليها :

– لكننا أولا سننفرد لقضاء شهر العسل الذى لن ينتهى إلا عندما تقررين أنت العودة إلى الحضارة والناس والمجتمع والبرلمان ... سنقضى شهر عسلنا هذا وحدنا فى عالم الأحلام ...

فاحتضنته وقبلته ، وقال :

– سأذهب الآن لآمر بالعشاء وبعده نأوى إلى فراشنا مبكراً ::

* * *

وعلى مائدة العشاء تناول الدوق كأساً من البراندى من يد الساقى الذى غادر الصالون ، ورفع الدوق الكأس وهو يقول لإلفا :

– نخبك يا زوجتى العزيزة ، ونخب شهر عسل سنكرره كل سنة حتى لا ننسى أول رحلة لنا معاً ، يا ساحرتى .

ورفعت إلفا كأسها وقالت بصوت هامس :

– نخبك يا معبودى سلفانوس !

ولما كان ثوبها بنفس لون الصالون ، بدت كأنها خارجة من البحر ، مع أنه يعرف أنه سيربطها دائماً بالأشجار ...

– فيم تفكر يا سلفانوس ؟

– أفكر أن باستطاعتى أن أصعد جبل الأولمب وأدهش الأرباب هناك بقدرتى على تنوير البشر وخدمتهم وارتقائهم :

– وأنت تنتمى إلى الأولمب فعلا يا سلفانوس :

– بل هذا ما فعلته به ، فاستطعت تحقيق ذاتى ، فالحب أعظم مثير وحافز ...

– ليس الحب الأرضى ، بل الحب الذى منحتنى إياه ... الحب الذى كنت أسمعه فى موسيقى الأشجار ، وكنت أصبو إليه .

وفى حجرة النوم تقدم ليخلع عنها ثوبها ، فوجد منها استحياء دهش له ، فقال :

– عندما نصل إلى بيتى فى كورنوال سنكون هناك وصيفة لخدمتك . أما هنا فليس غيرى من يخدمك ...

– ولكنك تجعلنى أشعر بالخجل ..

– لماذا ؟ لم تكونى هكذا بالأمس .

– بالأمس لم تكن رجلا . كنت سلفانوس إله الأشجار الذى عشت طول عمرى أتعبد له ... أما الليلة فأنت رجل ... فى ثياب السهرة ...

فضحك وخلع ثيابه وقال لها :

– هيا نخلع ثوبك ، لنكون رجلا وامرأة إلهيين ::: قدسهما الحب !

واحتضنها ورفع وجهها إليه ، وراحت أنامله تتحسس خطوط وجه الجنية الرهافة ، فشعر بها ترتجف بين ذراعيه ، فضحك وقال :

– ها أنا أستطيع أن أثيرك أيتها المرأة الجنية ، وكم أنا سعيد

بذلك ، لأنك بملمسك تثيرينى لدرجة الجنون ... بل تسحرينى أيتها الساحرة الحسناء ! إنى حقاً مسحور بك .

وازدادت ارتجافاً ، وهمست فى تخاذل :

ــ أحبك .

ــ وأنا أحبك وأريدك ... الآن وإلى الأبد .:.

وكانت شفتاه كالنار على شفتيها . ولكنها لم تشعر بخجل ولا خوف ، لأن أنوثتها ذابت فى رجولته ، مع هدهدة الأمواج :

* * *

[تمت]

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٩٧٧ ــ ١٦٣ ــ ٠٨٠ ــ ٦



عزيزى القارى ..

استجابة لمطالبتك المُلحَة ، أقدم لك فى هذا الكتاب الذى بين يديك ، العدد الأول من السلسلة الجديدة من سلاسل (كتابى) ، وهى (روايات كتابى) ، كى تنضم إلى شقيقتيها : (مطبوعات كتابى) و (مختارات كتابى) .. والطابع المميز لهذه السلسلة الجديدة هو أنها تقدم لك ترجمة لأمتع الروايات العالمية «المعاصرة» ، (الكتب الكلاسيكية الشامخة ـ روائية وغير روائية ـ التى هى طابع «مطبوعات كتابى») . ويسرنى أن أستهل هذه السلسلة الجديدة برواية من أروع مؤلفات الروائية البريطانية الرومانسية الشهيرة «باربرا كارتلاند» BARBARA CARTLAND ، التى ألفت أكثر من ٣٠٠ رواية ، بيعت منها أكثر من ٢٠٠ مليون نسخة (نصفها بيع فى الولايات المتحدة الامريكية) وترجمت إلى مختلف اللغات الحية ، فيما عدا اللغة العربية ، التى لم يترجم إليها أى عمل من مؤلفاتها قبل هذا الكتاب الذى بين يديك ، والذى يعد أول لقاء بين «باربرا كارتلاند» وقراء العربية ، الذين يسعدنى أن أعرّفهم اليوم بهذه الروائية المعاصرة التى ذكرت «موسوعة GUINNESS للأرقام القياسية» أنها المؤلفة صاحبة أكثر الكتب مبيعًا فى العالم !

والله ولى التوفيق ..

حلمى مراد

١٥٠ قرشًا